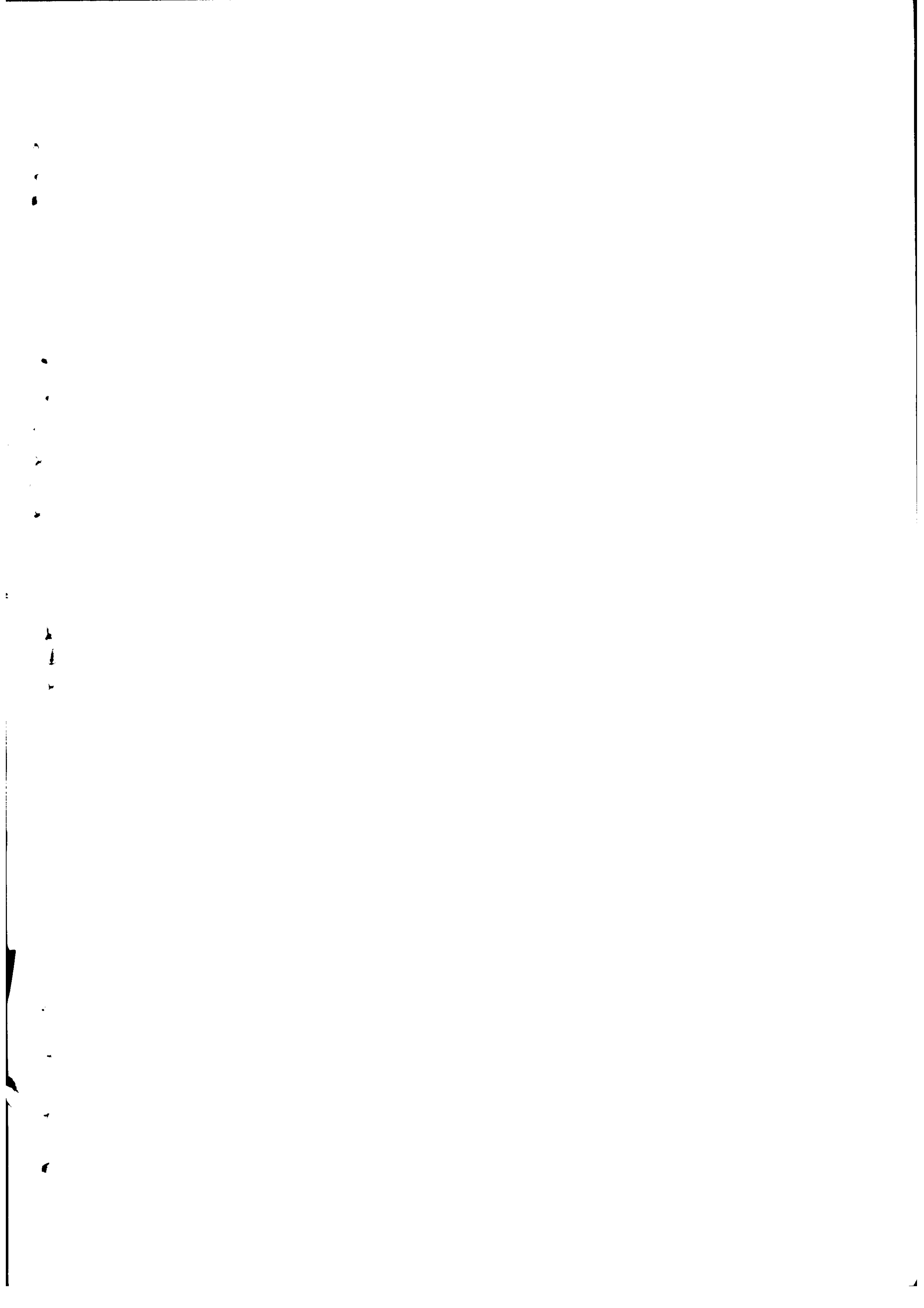
د. إيهاب سلام

الألم والمتعة

مجموعة قصص



الزحام

****

عزمنـا ، أنـا وأخـي ، أن نهبـط القريـة ، ونطـارد هـؤلاء المزارعيـن الذيـن عزفـوا عـن إرسـال إيجـار الأطيـان منـذ ثـلاث سنوات . حينما استقر بنا المقام في عاصمة المركز ، أشار النـاس إلى ضرورة الدخول في سـيارة بـالأجرة حتـى تقلنـا إلـى القريـة . ركبنا السيارة ، ولم يكن بها أحد . جاءت جلستنا بجانب السـائق . حمدنا الله على أن لا منافس لنا في المقعد الأمامي . انتظرنا حتى كـاد الصـبر يلفـظ أنفاسـه . ، وكـاد الملـل يوقـف زفيره . ثـم بـدأ الركـاب يـأتون فـرادى وجماعـات . يحملـون أحمـالاً تئـن منهـا الأكتاف . دخل واحد واثنين وثلاثة ولم نعد ندرك عدد الداخلين ، فقد كاد الوعي أن يغيب من الزحام في المقعـد الخلفـي ، وتعـثرت الأنفـاس فـي الصـدور مـن شـدة رجيـع التنفـس . كـانت السـيارة نموذجاً يسع المقعد الخلفي مقعداً آخر أمامه ، فامتلأت تمامـاً . ثـم انفتح الباب بجانبنا ودخل رجلان ثم رجل آخـر . وشـعرنا بأنفسـنا تضيق . وقوانا تتسرب ، أصبحنا سردينا في علبة صغيرة .

كان نموذج السيارة صمم على أن يكون له سلم ، فوقـف عليـه من ذات اليمين ثلاثة رجال . ومن ذات الشمال مثلهم . وصعـدت الأحمال فـوق ظهـر السيارة . وكـانت منهـا كائنـات حيـة تزقـزق وتصـرخ و"تكـاكي " ، وبعضهـا استسـلم ليـأس مقيـم . شـد عليهـا

السائق بحبل متين احتواها كلها داخله . وانطلقت السيارة تترجرج . تعاني من العجز ، تلطمها الشيخوخة على خدها الأيمن ثم خدها الأيسر لا تفرق بينهما . ولا تتوقف عن الصفع . ومن حين لآخر ينزل صبي يقف على " الرفرف " ذلك السلم ذي الدرجة الواحدة . يعبئها بالماء عوضاً عما تبخر منها بسبب ما فيها من لظى .

لما وصلنا إلى القرية كان النهار قد انتصف . ولم نجد مستأجري قطع الأرض المتناثرة في بيوتهم .، فاتجهنا صوب الحقول . تفادينا الممرات الطينية الموحلة . وخضنا في الممرات الصلدة . كانت الأراضي غير مزروعة لكن العمال الزراعيين يحرثونها بهمة . لذلك كان اللون البني - لون الأرض - قد ساد وأخفي اللون الأخضر ، ولو أنه كان يطل علينا من فروع الشجر على الطريق .

بالكاد دخل جيوبنا عدد من الجنيهات من الإيجارات المتأخرة . وقلنا إن الأرض ليست لنا وأنه يجب أن نجد وسيلة سريعة لبيعها . لم يكن من السهل أن تباع لأنها مكتظة بالمستأجرين . كل واحد يحوز قيراطاً أو قيراطين وأكبر واحد من المستأجرين يحوز ستة قراريط . وكان علينا أن نبيع إلى المستأجرين أنفسهم حتى لا نخسر كثيراً . ولو أنهم غير قادرين على شرائها . طحنهم الفقر كما يدعون . وقد أذاع واحد من أهل الخير هامساً همساً كالفحيح أن أحدهم باع محصوله من البطاطس بأربعمائة جنيه .

وقد أعطانا ذلك المستأجر عشـر جنيهات عن سنة واحدة . ولم يكن في مقدورنا أن نشاركه في غلة الأرض . واستغربنا أن يؤخر الإيجار حتى ذلك الحين .

قبل الغروب . وبعد التنقل من حقل إلى آخر . ومفاوضات بين ذلك الفلاح والفلاح الآخر وبيننا . كان علينا أن نعود . وكانت الشمس تدخل محرابها وقد ارتدت لونها الأرجواني . جلسنا ننتظر وقد شعرنا بالجوع والتعب . كان الغم قد حط علينا بسبب هذه الرحلة التعسة . ستة مستأجرين رفضوا دفع ما عليهم . وثلاثة أعطونا صاغرين أو لعلهم أشفقوا علينا من المشوار .أعتذر الرافضون لأن الدودة أكلت لوز القطن فلم ينبت وتعرض المحصول إلى الخسارة . ودفع الآخرون والتبرم يركب ظهورهم والعبوس يكتنف وجوههم .

جاءت السيارة فارغة . تمنينا أن تخلو من كابوس الزحام . غير أن التمني شيء والواقع شيء آخر . كانت تمشي الهوينى وتلتقط الراكب بعد الآخر . حتى دخلها ستة عشر . ووقف على أبوابها ستة آخرين . وكنا نجلس في المقعد الأمامي لكننا لا نشعر أين الأمام وأين الخلف . رجل غليظ جلس على ركبنا الهزيلة . لا يهمه أن نتألم أو يتوقف تنفسنا أو حتى نموت .

دخل السابع عشر إلى السيارة ، بعد أن أفسح له الواقفون على السلم الطريق . وما كادت السيارة تنطلق حتى انفجرت عجلة من

عجلاتها . علا صراخها حتى ترنحت . توقف السائق بسرعة وأعتذر أن العجلة الاحتياطية غير سليمة .

بدأ الركاب يخرجون ثم ينتشرون .. كل يبحث عن طريق . وشعرنا وقتها أننا ضائعان . والظلام بدأ يلمس الأفق . وجاءت سيارة ثم أخرى ولم يتوقفا . كانتا مزدحمتين . لدرجة أن الواحدة منهما تريد أن تلفظ ما فيها ولا تستطيع . شبعت السيارتان بالركاب إلى حد التخمة . هل نبيت على الطوار ؟ .. لأين نذهب ؟ .. وكيف نعود إلى المركز والمشوار بعيد . شعرنا كأننا تائهان . سألنا من تبقى من الناس معنا ينتظر .

– ألا توجد وسيلة أخرى للعودة إلى المركز ؟ ..

قال واحد يسأل : إلى أين أنتما ذاهبان ؟ ..

قلنا : إلى القاهرة .

قال : هل هناك مانع أن تركبا القطار ؟ ..

– وأين القطار ؟

– على بعد أمتار من هنا ..

وعرفنا المجيب اسم القرية التي يقف عندها القطار . وكان علينا أن نصلها سيراً على الأقدام . وقررنا السير على أن نبيت في العراء .

لم تكن الأمتار مائة أو مائتين .. كان يمكن حسابها بالكيلو مترات . ولم يكن واحداً أو أثنين إنما زاد إلى عشرة أو أكثر . شعرنا بأقدامنا تتقلص . والتعب بدأ يغزو مفاصلنا . والجفاف دب

بساقيه في حلقينا فأدماها . غير أننا واصلنا . كان المبيت في العراء صعباً لم نألفه . وقال أخي : سوف أبيع كل هذه القراريط وينتهي أمرها . قلت : سوف تبيعها بأرخص الأسعار . قال : هذا لا يهم .

انتظرنا القطار ساعة حتى وصل يتهادى . كان خط القطار فرعياً . وكان القطار قديم النموذج مثلما كانت السيارات . لعله يعمل على هذا الخط حتى يتخفى عن الأنظار . ولا يشعر بوجوده أحد .

حينما أخترقنا القطار إلى الداخل . وجدنا الناس قد تجمعوا عند المدخل وفي طرقات القطار . أكانوا يقلدون أهل أوربا .. هؤلاء الذين لا يجلسون في الترام أبداً ؟ ..

حاولنا أن نزيح الزحام حتى نبلغ المقاعد . والتعب أنهكنا . والجفاف أمتصنا . ولم تعد لدينا قدرة على الوقوف . مثل هؤلاء الأبطال . وجدنا المقاعد فارغة ليس عليها أحد . لا يجلس عليها طفل . كان فرشها قد جُرد منها ولم تعد هناك غير أسلاك توجع من يضع جسده عليها . كدنا نسقط إعياء من الإرهاق وفكرنا أن نجلس على أرض القطار غير أن الحياء تدخل ومنعنا .

العرس السعيد

****

الأحلام الوردية تعاوده بعد انقطاع دام طويلاً . بعد ساعات يتلألأ العرس في أفخم قاعات أرقى الفنادق . كانت كبوته الأولى قد زالت . انتعشت أحواله المالية بفضل ذلك المعمل الذي أنشأه ويديره . وبينما الأحلام الوردية تنقله من واحة إلى أخرى . ينهل من هذا النبع وذلك النبع . رن جرس الهاتف ، كأنما يوقظه من غفوة طويلة . كان يخلع نظارته ويفرك عينيه ودوائر سوداء حولهما . رفع السماعة ليرد :

– نعم ..

قال صوت في الهاتف :

– اسمع .. أنت مقدم على أكبر مقلب في حياتك . أنت لن تتزوج امرأة بكراً .. عذراء لم يمسسها رجل .. إنما سوف تتزوج امرأة سبق لها الزواج .. ولها طفل .

– كيف عرفت ؟ ..

– إذا كنت تريد أن تتثبت ، فيمكنك أن تكتب رقم وثيقة عقد القران وتاريخه . ورقم وشهادة ميلاد ابنها وتاريخ ميلاده . حيث تجد فيها اسم الأب والأم التي سوف تتزوجها . ووثيقة الطلاق أيضاً . خذ رقمها وتاريخها .

– من أنت ؟ ..

- أنا فاعل خير .. لا أريد لك أن تتورط .

كتب الأرقام والتواريخ التي أنهال عليه بها فاعل الخير . كان يدخله في متاهات من المعادلات الجبرية المعقدة . وخرج من معمله تائهاً يتقصى الحقائق . تأكد من كل شيء ساهم أصدقاؤه في وقت قصير بمعلومات فائضة ..

لكنه كان قد تورط . بالأمس ظهراً وضع يده في يد أبيها . وقرأ المأذون طقوس عقد القران في أحد المساجد العريقة . واليوم ليلاً سوف تصفق القلوب احتفالاً بالزفاف .

تأكد فعلاً أنها تزوجت وطلقت .. وأنها استوفت عدتها منذ زمن ؟ .. فكيف كذبت ؟ .. كيف أدلت ببيانات كاذبة في وثيقة صادقة ؟ .. لعلها كانت تخشى ألا يقترن بها . فضلت أن يدخل أعتابها وتضعه أمام الأمر الواقع بعد ذلك . تعرف أنه لا يحب الفضائح وسوف يغفر لها . سوف ينصاع إليها لأنه خاتم في إصبعها . اشترى لها شقة باسمها حتى تتأكد من حبه لها . دفع لها مهراً ثقلها ذهباً . وهي ليست خفيفة . أثث الشقة أثاثاً لا تحلم به عذراء ، فما بالنا بثيب ؟ ! ..لم تحايلت عليه وكذبت ؟ .. لم الغش ؟ .. أيحضر الحفلة أم يتركها . وهؤلاء المدعون ما ذنبهم ؟ .. وهذه الأموال التي أنفقت على إتمام الحفلة أضاعت عليه . لتكن الحفلة قائمة كما هي .. ولتبدأ أو تنتهي في مواعيدها . لتك احتفالاً بنهاية المأساة ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

بينما كان يجلس بجانبها على كرسي العرس . كان سكين الألـم يذبحه . لم يكن يرحمه . ولو أن نصل السكين بارد يعذبه غير أنه يقطع دون دماء تسيل . يبتسم وقلبه يبكـي . دمـوع لا يراهـا أحـد لكن لا تبلل جسده . يشكر المدعوين ويده تلعـن كـل مـن يقربهـا . يحتضن الصديق بعد الآخر وحضنه ثلج يكوي .

سألته : مالك هكذا غير مبتهج ؟

قال ممتعضاً :

– أبداً .. كان هناك تحليل أجريته لصديق عزيز .. واتضح لي أنه مريض بمرض خبيث .

– هل صارحته ؟

– لا .. لذلك تجديني مضطرباً قلقاً .. كان لا يجوز أن أجري هذا التحليل . لكن الرجل أصر لأنه يثق بي .

قالت بجرأة :

– نريد أن نتسلل خفية .. ونذهـب إلـى حجرتنـا دون أن يرانـا أحد .

– ألن تحضري الزفة ؟ ..

– بعد الزفة .. أقصد .

أجاب باقتضاب : وهو كذلك .

جاء واحد من عمال الفندق ، وهمس له همسة . قام على أثرها مضطرباً . كأنما خارت قواه فجأة . كان يتزحزح من بلاطـة إلـى أخرى في دهر . وهـو يبتسم لهـذا ولـذاك . والعـذاب جـاثم علـى

صدره يضحك . اتجه إلى حيث الهواتف . ودخل إلى حجرة هاتف أشار العامل إليه بها . وإذ به يسمع محدثه يقول :

– هل تأكدت يا سيدي ؟ ..

– نعم .. تأكدت .

– إن وقاحتها زادت يا سيدي ، لدرجة أن ابنها الطفل ذو السنوات الخمس مدعو في الحفلة . بل إن طليقها أيضاً موجود بها . هل تريد أن تتأكد ؟ ..

قفل السماعة بغضب . تجولت عيناه بين المدعوين . وجده يلعب وحيداً دون أخدان . في مثل هذه الحفلات لا دعوة للأطفال . أيكون هو ؟ .. أين أبوه ؟ .. أيكون هو المتكلم ؟ ..

وأشار إلى العروس أن تبدأ الخاتمة .

ووقفت السيوف والشموع . ودقت الطبول . وانطلق النفير . يعلن عن عرس سعيد . يحاول أن يبتسم لكن الابتسامة تموت على شفتيه . كان كمن يكافح قطاع طريق . الصور تلتقط . والأنوار تأكل الأبصار . عما قريب سوف تنشر صورتها وصورته في الصحف تبارك العرس . هل سيظهر فيها القلب وهو يحتضر . والجسد وهو يكاد يتهدم ؟ ..

انتهت المسرحية بعد لأي . صعدت العروس بالمصعد بجانب العريس . تبتسم في حياء . هل تعرفين الخفر ؟ .. قصيرة القامة لكن كعب حذائها جعلها طويلة . قامته مديدة لكن ثقل الألم جعلها

متراخية فبدا لو أنه يقترب من مستواها . كان يتكلف الابتسامة . وهي تغذيه بضحكة عريضة من فمها الدقيق .

دخلت الحجرة تخلع ثيابها . وانتظر في حجرة ملحقة . لما امتدت يدها إلى أكرة الباب وغابت في الحجرة أمسكت يده بأكرة باب الخروج ثم غيبه المصعد .

تجول والصبح يحاول أن يدخل المدينة خلسة . ثم أصبح يسيطر على الموقف . والتوتر يقبض على قلبه ، والقلق لا يفارقه . ويصل إلى نقطة معينة ، يدور ويلف كالنحلة التائهة في بستان واسع . ويعود يتجول في الشوارع ولا تزال الأفكار تستبد به . ويكاد يهتز جسده منها . يصل إلى المكان من جديد . يتوقف . يشاهد باب الشقة مفتوحاً . لها مدخل على الشارع . يدخل غير ملتفت إلى اللافتة المعلقة فقد كان يعرفها جيداً . هناك سيضع حداً للمأساة .

المستشفى الخاص

****

لم أقف في الصف . وانتظر ذلك الانتظار الطويل .. أليس هناك قرش ؟ .. إذاً هن هذا القرش أفضل أن تهان النفس . ذلك ما تمخض عنه تفكيره ، وقرر أن يلجأ إلى المستشفيات الخاصة بدلاً من المستشفيات العامة . وركب السيارة العمومية .. ونزل منها عند المستشفي الخاص الذي يعرفه .. كانت الساعة تدنو من الخامسة ، غير أن الشمس لا تزال تصب غضبها على الأرض ، تلسع الناس إلا من تواري منها .. ومن الطريق العام إلى طريق المستشفى لم يكن هناك ظل يستتر به . كانت الظلال قد توارت لأن الشمس من جهة المغيب . ترسل أشعتها على طول الطريق .. ولا يتعرض العرض لشيء من أشعتها فيحجب شيئاً فيه .. ويلقي ظلاله على الأرض .

أسرع يمشي حتى تكون السرعة عاملاً من عوامل تخفيف ذلك الغضب المصبوب عليه .. وعلى غيره . داهمته ظلال الشجر في حديقة المستشفى فكان كشخص يبحث عن طعام ظنه حنظلاً فإذا به يجده فاكهة . خففت الظلال كثيراً من شدة الحرارة . وحينما أحتضنه هواء المدخل شعر بيد حنون تسقط على كتفيه . انفتح باب المدخل .. وقال في هذه الحالة يمكن أن يستعمل هذا الفعل ، لأن الباب ينفتح من تلقاء نفسه .

دخل يبحث عن موظفي الاستقبال . أصابه الهلع حينما طلبت منه عاملة الخزينة ثمناً لملف وثمناً للكشف . وهو يعرف أن قيمة الملف لا تزيد على خمس ورقات .. وتطلب مائة ورقة . ولا يزال هناك ثمن الدواء حينما يتفضل الطبيب برص عدد من الأصناف .. كل صنف ملتهب القيمة .. والجيب يدفع .. لا المستشفى .

وكأن لا فرق بين الانتظار في مستشفي خاص .. وبين الانتظار في مستشفى عام . فما الذي قاده إذاً إلى الخاص ؟ ..

حينما استقبله الطبيب كان متجهم الوجه .. كيف تستقبل مرضاك بهذا الوجه المكفهر؟. . لعله ينوء من عبء العمل فيبدو مقطب الجبين .

– مم تشكو ؟ ..
– صداع في رأسي شديد .
– منذ متى ؟ ..
– منذ ثلاثة أيام .. قد يكون ارتفاع في ضغط الدم .
– هل أنت الذي تقرر مرضك ؟
– لا .. أبداً .. قرر أنت .

طلب منه أن يستلقي على سرير . وطفقت الممرضة تقيس ضغط الدم .. والحرارة . جاء الطبيب أخيراً ليقلبه على ظهره .. وعلى وجهه . ويمرر سماعة على كل أجزاء صدره وظهره .

سأله حينما عاد إلى مكتب الكشف .

– صوتك خشن فما السبب ؟ ..

– إنه كذلك منذ ولادتي .

– هل تغيرت مواعيد حلاقة ذقنك .. كنت تحلقها كل يومين مثلاً فأصبحت تحلقها كل يوم .

– لا .. أبداً .. لم يتغير شيء .

– هل تشعر بخفقان ؟ ..

– لا .. لا أشعر .

– أريد أن تجري بعض التحليلات .

– أنا رهن إشارتك .

طفقت الممرضة تناوله ورقة بعد أخرى . وهو يكتب بصبر نافذ كأنما يريد أن ينتهي من الحالة المعروضة عليه . وناوله أولاً بأول الورقات . تلك أشعة على الرأس . وأريد تحليلاً تجريه في الصباح . إذا أجريته فيكون ذلك ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة صباحاً .. عن مستوى الكلسترول .. وهذا تحليل آخر تجريه على الدم .. وتحليل عن بعض مستويات المواد في بدنك .

نظر إليه المريض وسأل :

– كم تعتقد أن تلك التحاليل سوف تكلفني ؟ ..

– خمسة آلاف فقط ..

ثم نظر إليه وهو يقول :

– لو كنت تستطيع أن تتوجه إلى مستشفي عام .. فهذا أفضل ..

سأله وهو يزدرد غصة في حلقه :

- ألن تكتب لي دواء يعالج الصداع ..

قال الطبيب بإصرار :

- لا .. لـن أكتـب لـك أي دواء .. إلا بعـد إجـراء هـذه التحليلات .

الشيطان الصغير

*** * * * * * * * * * * * * * ***

جلسنا عند المقهى الوحيد بالقرية . وجاء عبد العال معفراً متعباً منهكاً . ولما جلس قال بصوته الأجش : شاهدت الشيطان الصغير اليوم . فغرنا أفواهنا دهشة . وسألناه : أين ؟ ..

كان الشيطان الصغير قد ترك القرية منذ زمن بعيد . لكنا كنا نذكره . لما جاء أول مرة ظننا أنه نبت بري واتضح أن الشيطان تعهده فأصبح على الصورة التي هو عليها . جاء إلى القرية والليل يقفل الأبواب حاجباً الأضواء . يغمر القرية بظلام كالح .طرق الشيطان الأبواب فلم يستجب لندائه أحد . كأنما أدركوا أن وراء الدق مخلوقا غريباً قد يصيبهم بضرر مؤكد . دخل البيت الأخير عنوة بعد أن دق أبواب عشرة قبله . ورقد ينام نوماً عميقاً في أول ساحة قابلته . تركوه ينام إشفاقاً وخشية . امتزج العطف مع الخوف في وحدة واحدة وأنجبا تركاً له إلى حين . كانت ذقنه المسترسلة وملابسه الممزقة وشعره الأشعث يدل على أنه متشرد أصيل طال تشرده .

تركه أهل البيت الذي دخله يستغرق في نوم عميق . وعندما لمس قرص الشمس الأفق من الشرق . شاهدنا ذلك الشيطان يُطرد شر طرداً من مكان نومته . ومشى يتمتم ويبرطم حتى صادفه الشيطان الكبير .وهو ذلك المستبد الذي يفعل ما يحلو

له .. دون رقيب أو حسيب . يدخل يده في الممنوعات ويخرجها دون أن تصاب بخدش . يأمر فيطاع وإذا لم يطع يزيح المتمرد عن سبيله . سرعان ما وقعت الطيور على أشكالها فاستضافه . أدخله في كنفه . وبذر الصغير حبوب المديح على أرض الكبير ونثر زهور الإطراء في هوائه ، فاحبه . وضمه إليه . وكلفه بأعمال مختلفة مهر فيها . وصار يتخذ من الأعمال ما أثار اندهاش الشيطان الكبير . ولم يتوقف تعمق العلاقة عند السطح إنما تغلغلت إلى الأعماق . حتى أمسى ذلك الصغير يقود فريق الشيطان الكبير بحذاقة منقطعة النظير . صار يأتمنه على أسراره . ويصرح له أن يفك طلاسم أعماله وشفراتها . وعرف كل خباياه ، واتخذه يداً يمنى وفي بعض الأحيان صار يديه اللتين يعصف بهما .. أو يعطف بهما . كل ذلك حدث في وقت قصير . واستراح الشيطان الكبير في قصره المنيف مطمئناً إلى أن كل شيء أدركه الأمان ولن تغرب شمس عنه .

داهمته الشرطة في يوم من الأيام . كشفت كل مخابئ تجارته المحرمة ، كأنما كانت لديها خريطة بكل الخفايا . وتم القبض عليه وعلى رجاله . وتبخر الشيطان الصغير ذلك الذي دخل القرية يوماً في صورة متشرد وخرج منها والجلباب الحريري يلمع على جسده .

كنا نسأل دائماً : هل قبضت عليه الشرطة ؟ .. هل سلم نفسه ؟ .. أين ذهب ؟ .. ولكنها أسئلة سهلة ذات إجابات صعبة أو مستحيلة .. لا سبيل إليها أبداً .

حتى جاء الولد عبد العال ليقول لنا : لقد رأيت الشيطان الصغير . يستطرد الولد عبد العال يقول : إنه كان يزور مسجد السيدة زينب . وحاول أحد لاقطي الجيوب أن يستخلص من جيبه حافظته المشدودة إلى وسطه بحبل لا ينقطع . غير أنه قبض عليه وهو يحاول الفرار بها . وتجمعت الناس حول اللص . ظننا أنه سيقول لنا إن اللص كان هو الشيطان الصغير . لكنا كتمنا الظن وطويناه في قلوبنا . ولا يزال عبد العال يروي قصته . إذ أصر أن يقود اللص إلى قسم الشرطة وهناك بينما الضابط يحقق . خمنا مرة أخرى أن يقول عبد العال إنه شاهد الشيطان الصغير قد أحاطته الأصفاد من كل جانب وأنه ملقى ككم لا اعتبار له بين المساجين والمحبوسين والمقبوض عليهم من منتظري التحقيق . لكن وارينا التخمين جانباً وعبد العال يواصل : إنه شاهد الشيطان الصغير يدخل من الباب واثقاً من نفسه ، يمشي في ثبات . ووقف الضابط منتفضاً . كان يرتدي ملابس لواء شرطة وكان يتفقد أحوال القسم .

الغموض

****

أقنعت نفسي أخيراً أن الأصل في الحياة هو الغموض . نولد في كهف مظلم نضطر للسير فيه ولا ندرك معالمه إلا إذا ظهر ثقب من نور سرعان ما تسده الرمال أو نتجاوزه ونحن نسير في الكهف . نحاول بشتى الطرق أن نزيل الضباب من حياتنا ، ونحن نمضى في الطريق ونحاول أن نتلمس أساليب لانقشاع الضباب ، لكنها عسيرة المنال . بل في بعض الأحيان تبدو مستحيلة . يمكن أن يعيش إنسان في وسط بخار الغموض حياته كلها ويموت دون أن يزيح البخار لحظة . ويمكن أن يبدد بعضاً منه لكن الغالب لن تكون الرؤية واسعة المدى .

***

ولدت من أبوين مجهولين ، لذلك كنت نزيلاً في أحد ملاجئ اللقطاء . ولعل ذلك هو السبب الذي أقنعني أن الأصل هو الغموض وأن الاستثناء هو الوضوح . القاعدة هي الكهف المظلم وما عدا ذلك بصيص من النور . بل بالغت في الأمر وقلت إن أياً من البشر لا يعرف والديه وذلك حتى نكون كلنا سواسية . فالابن لا يعرف الأم التي لفظته من رحمها لأنه لم يكن واعياً وقت الولادة . ولا يعرف أن الأب الذي يربيه هو والده الحقيقي . إنما

جرى العرف على أن من يولد في فراش رجل وقالت له المرأة أنها أمه وقال له الرجل إنه أبوه ، فقد أصبحا والديه .

***

لم يكن أحد من اللقطاء صديقاً لي . كنت أتحاشى الصداقة لأن أحداً لن يصارحني في كل وقت بحقيقة مشاعره . كنت أروم السباحة في بحر الصداقة لكن أخشى اليم . إننا دائماً نخفي باطننا عمن حولنا . وقد تصاحب إنساناً لا تحبه ولا تقول له إنك تكرهه . وقد لا تصاحب إنساناً تحبه ولا تجرؤ أن تقول له إنك تحبه بسبب التباعد بينكما . وللتباعد أسباب كثيرة .

***

حينما تقدم رجل وامرأة ليتبنياني لم استطع أن أرفض . خرجت من الملجأ ذي العنابر الكثيرة والأسرة العديدة إلى حجرة خاصة بها فراش وثير وسرير رائع له دولاب صغير لكنه متين . حجرة مليئة باللعب وأدوات التسلية المختلفة والكتب المصورة . المرأة حنون ودموعها دائماً على خدها . والرجل يفيض بشراً ومودة ويريد أن يصاحبني ، فكيف أرفض ؟ ..

انتهت أيام القنوط مثلما ينتهي يوم مظلم لا قمر فيه . وبدأت أيام الفرح مثلما تبدأ تباشير الفجر بشعاع حنون وندى على الجفون .

قالت الأم الجديدة ذات يوم :

– أنت ابني .. ابني بالفعل . لقد حملتك في باطني تسعة شهور .

اهتزت أوصالي وسألتها بسذاجة :

– ولم ألقيت بي في الملجأ ؟ ..

قالت وهي تشيح بوجهها عني :

– هذا سر . لا أبوح لك به الآن . سامحني لأني لن أبوح به .

استمر حديثها في داخلي . ولا أعرف لكتمانها السر تبريراً . وحينما شاهدت فيلم الخطايا ، لما اشتد عودي وقوى ساعداي . قلت ربما أخطأت وفعلت ما فعلته المرأة في الفيلم . لكن الأب بعد انتهاء العرض قال لي في حنو بالغ :

– صدق .. صدق أنك ابني . ابني الفعلي . من لحمي ودمي . من صلبي .

وضمني إليه وأنا أسأله بسذاجة :

– ولم ألقيت بي في الملجأ ؟ ..

قال وهو يتكتم الحقيقة :

– هذه قصة أخرى .. سوف أرويها لك فيما بعد .

ولم يأت هذا " البعد " .

***

حتى أزيح الضباب من حياتي . اخترعت قصة لنفسي وصدقتها . قلت إن الوالدين أخطآ في زمن قديم . وكانت ثمرة خطيئتهما ذلك الطفل البريء . ولم تجد الأم بداً من أن تضعه في

ملجأ . وعرفت اسمه ، حتى ما إذا قرر الرجل أن يضفي الشرعية على علاقتهما جاءا يبحثان عن الطفل ويضمانه إليهما ويمنحانه اسميهما . لكن هل هذه هي الحقيقة ؟ ..

لم أحاول أن استفسر . كان الخجل يمنعني أن أخوض في منطقة محرمة على البشر ارتيادها . ولما كان التبني محرما ، فكيف أفسر ما فعلاه غير أنه الحقيقة . كان صمتهما الأبدي يمنعني من مواصلة السؤال كلما حاولت أن أسأله . كانا يكتمان أسرارهما لدرجة أنني أعتقدت أنهما سوف يفارقاني ولن يبوحا بها .وطنت نفسي بعد ذلك على أن أمضي في حياتي ، وأغترف مما أنا فيه من عز , وألفظ السؤالٍ من جوفي للهواء فلا يجيب . أذهب إلى المدرسة وأتناول طعاماً جيداً . وأنام في فراش وثير . وأنال من الحنان والحب ما يفيض . ومكتوب باسم الرجل والمرأة . لا أحد يعترض على انتسابي إليهما . لكن ذلك لا يمنعني من أن احاول أن أعرف سر الوالدين ، ولكنهما لم يحاولا أن يعترفا به . لعل الأمر كان يخجلهما . ويشعران أن في البوح به فضيحة . وقلت إن الغموض يحيطنا من كل جانب فما يحول دوني والاستسلام له . إذا كان عليّ أن أمضي في الكهف أتلمس فقط فما يضيرني إذا تلمست فقط دون أن أحاول أن اكشف كل ما في الكهف . لعل التلمس يظهر ما في الكهف واضحاً في يوم من الأيام .

لكن الرغبة في التأكد من صحة أقوالهما جعلتني أشبه بعالم الفلك الذي يرصد الأفلاك البعيدة ليعرف أسرارها ومكوناتها . وقد عاملا الحقيقة بتستر كبير حتى بدا لي أنهما نجمان أو كوكبان لا أمل في الوصول إليهما . واستغربت منهما هذا الموقف .

ولما مات الوالد . وآلت إليّ معظم ثروته . تأكدت بالفعل أنني ابنهما ، لأن أحداً لم يطعن في نسبي أو يعترض على ميراثي . لكن الشك طفق يحيرني . ربما أوهم الأقارب أنني ابنه حتى لا ينازعوني في الميراث . وهذه الأم أهي متجردة من كل طمع . إذا لم تكن أمي فكيف لم تلق السهم القاتل في وجهي حتى تسترد الثروة كلها أو بعضها . إنها تتصرف كأم تحمي طفلها . لا تضحي بربع التركة لو كانت لا صلة لي بالأب . واكتفت بالثمن شرعاً لأني ابن للرجل الذي مات . بل سلمت لي ميراثها لأديره ويؤول إلي بعد العمر المديد .

رغم ذلك استمررت في حيرتي لا أصدق . لم أشأ أن أضع الأم أمام الأمر الواقع وأقول لها خبريني بالحقيقة وإلا تركتك إلى الأبد . ربما كان الماضي مشيناً ولا تريد الاعتراف به . قد افتح باب الجحيم بيدي ولا أستطيع أن أقفله . لذلك بدأت أفتش في أوراق المرحوم .. لعلي أجد له مذكرات . وعثرت على وثيقة زواجه ، وفوجئت بأن تاريخ القران سابق على تاريخ ميلادي . إذاً القصة التي اخترعتها فيما مضى ووطنت نفسي على تصديقها تبدو غير صحيحة . لا يمكن أن أكون ثمرة خطيئة تمت قبل

الزواج . وحينما تزوجا أضفا الشرعية على الثمرة ، فهل كان الرجل عقيماً وأنجبت المرأة من رجل آخر وتنكر الرجل للطفل في البداية ثم عاد وقبل أن يعيش في كنفه ويمنحه اسمه ؟ .. والأمر تم في سرية تامة بحيث لم يكتشف الأقارب أن هذا الطفل ليس ابن الرجل إنما زوجه حملت وهي على فراش الزوجية ولا دراية لهم بعقم المتوفي ؟ ..

يجب أن أواجهها . لا يمكن أن تتركني نهباً للقلق المزري يلعب بي كيف ما شاء . لكن الرجل كان حنوناً كريماً معي . لا أعتقد أن ابن الزنا يمكن أن ينال كل ذلك الود والرحمة والحب من رجل يعرف حقيقته . ماذا أفعل إذا طلبت منها الإفصاح فخذلتني ولم تقل لي شيئاً . أتستمر هكذا لا تبوح بأسرارها . وأنا أتقلب في دوامة الشك . لقد رحلت وتركتني أعاني من الغموض في أصلي وأصدق كلامها وأكذبه في نفس الوقت .

سيدة محترمة

****

لما عدت إلى القاهرة . بحثت عنها في الدور الذي كنا نعمل فيه معاً . أخبرني بعض الزملاء أنها رقيت ونقلت إلى دور آخر . صعدت إليها . وبحثت عن مكتبها ولم أجدها فيه . قال زملاؤها إنها استأذنت ساعة وقد تأتي . ورغم مشغوليات المتغرب العامل في الخارج الكثيرة أنتظرتها . أريد أن أراها .. أن اعرف نبض قلبها . وهي الآن بلا زوج .. حرة . لا أعتقد أنها قد تكتم عواطفها . لكن هل سوف يواجهني في الحب نفس المصير في الحياة . فأنا شخص ناجح فعلاً لكن ترتيبي دائماً في وسط الناجحين . مثلاً تخرجت بدرجة جيد . وعندما حان لشباب الدفعة أن يتقدموا للنيابة العامة ، قفل الباب قبل أن أدخل . بل الأكثر إثباتاً لنظريتي أن ديوان الموظفين أعلن عن مسابقة اختيار الموظفين تقدمت إليها . وحصلت على ترتيب متقدم لكن عند التوزيع كان الأول يذهب إلى مصلحة يغترف موظفوها مرتبين وحوافز . ويذهب الثاني إلى مصلحة لا يغترف موظفوها غير مرتبهم وقد يخصم منهم جزء منها . لكن الحقيقة أنني صابر وقانع ولا أشكو ولا أهتم وأواصل الدراسة العليا . لعل العلم يساعد في القفز قفزة كبرى تنقلني من قاع السهل إلى قمة الجبل .

وفي الحب كان الوضع مماثلاً . لقد التقيت بها في ديوان المصلحة وعملنا معاً في نفس الإدارة العامة . واعتقدت وقتها أنها طرف الحب الذي انتظرته طويلاً ولا أجده . وأذكر أن عيني كانتا تدمعان حينما أسمع أغنية عبد الوهاب " حبيبي ياللي خيالي فيك * ياللي حياتي حتكمل بيك " وكنت أتركهما تدمعان حتى تسيل الدموع على خدي غير الأملس . لكن لم أجرؤ على البوح بالحب ، ذلك لأني اكتشفت أنها زوج ولها بنت وولد ، لذلك كتمت حبي في قلبي ، ولو أنها أدركت أنني طريح هواها .ومن أجل أن أنفس عن مشاعري وأشواقي وآلامي وأحزاني سمحت لنفسي أن تكتب شعراً. تقرؤه وتطرب من قراءاته ولعلها تكاد تدرك أنه كتب من أجلها . إنه شعر مقفى غير موزونٍ وغير قابل للنشر . كنت أدرك أنها لن تحتفظ به ، فلست شاعراً معروفاً . ولن أكون ذلك الشاعر المرموق الذي تتهافت عليه النساء .

تغزلت كثيراً في عينيها الزرقاوين . وشعرها البني الممزوج بالاصفرار . وتلك السمرة التي فرشت جمالها على بشرتها وإهابها .وكانت مثار إعجاب الجميع .. تلك السمراء ذات العينين الزرقاوين . والقوام اللدن الممشوق . قصيرة القامة حقاً ، لكن الكعب العالي يخفي ذلك العيب . وهو ليس بعيب . إن معظم النساء قصيرات القامة . وطويلاتها يقال عنهن إنهن أشبه بالرجال .

وأعود لنظرية حياتي . فقد استطعت أن أخرج من عنق الزجاجة لكن بعد أن تخطيت الأربعين بكثير . وهكذا يأتي الثراء بعد شوق وعطش .وسافرت إلى الخارج للعمل . وهناك داهمني نبأ فقد الحبيبة لزوجها .فهل ينتعش الحب ؟ .. لا .. بل لم يحدث جديد . أتراها تحبني وكانت تكتم في قلبها حبها لأنها سيدة متزوجة . أيدل قبولها أن تقرأ شعري الغزلي ولا ترده إليّ أن في قلبها حباً ينبض ؟ ..لا أقول غراماً مستعراً إنما إعجاب قابل لأن يتطور . أو هوى لا يحركه الهواء . كامن في الفؤاد لا يتحرك ويشغل البال من حين لآخر . غير أني لم أتخذ موقفاً .. تجمدت .

جاءت والبسمة تعلو وجهها . لقد عرفت من الساعي أنني أنتظرها . كشفها قلبها وهو يهلل . وصافحتني بحرارة . لم اكن أنتظر أن تقابلني بهذه الروح الوثابة . لما جلسنا سألتها :

– ما حالك الآن ؟

– أبداً . أربي ابنتي وابني . كبرا تخرجت البنت وتعمل . والولد في الجامعة .

– عال .. عال ..

ثم سألتها سؤالاً مفاجئاً :

– ألم تفكري في الزواج ؟ ..

قالت بلا مبالاة :

– لم ؟ .. ما الداعي ؟ .. أنا أربي ابنتي وابني .

وكأنما شعرت أنها خذلتني . وأنها أشعلت النار في أمل راودني . سألتني :

– ألا زلت تكتب شعراً ؟ ..

قلت مرتبكاً :

– وهل كان ما اكتبه شعراً ؟ .. إنه نثر مقفى .

أخرجت من مكتبها قصائدي القديمة التي ترنمت فيها بجمالها وحسنها ودفعتها إليّ وأنا أسأل : – ما هذا ؟ ..

قالت : هذا ما كتبته من شعر حينما كنت معنا . لا زلت أحتفظ به . هاجت عواطفي في قلبي ، كأنما كان الفؤاد صفحة ماء صافية متدفقة خاملة الموج .اربدت سحنة الكون فجأة وصارت الأمواج تتلاطم والرياح تزأر . كان الموج عالياً في صدري والأنفاس المتهدجة تكاد تكشف عن داخلي . ماذا حدث لي ؟ .. أكانت تحبني كل هذه السنوات ؟ .. من أجل ذلك لم تفرط في شعري المقفى غير الموزون . ابتسمت وسألت : أما زلت تحتفظين بهذه الأوراق . وأخذت أتصفح ما كتبته وقد ناولتني إياه ، كأنما كنت أريد أن أتأكد أن الخط خطى وأن الحظ حظي . كان الابتهاج عاصفة في القلب والاحتفاظ بأوراقي دليل على الحب . وقد يكون دليلاً على غرام المرأة بالغزل .

لكن الموقف لم يتعاظم . خجلت أن اطلب منها لقاء فهي سيدة محترمة . وخجلت أن أتردد عليها رغبة في ألا تتشعب أواصر الود ، فيصبح من المستحيل رجم الحب . وقد تتعرض حينئذ في

عملها للقيل والقال . كل ما طلبته منهـا أن تمنحنـي عنوانهـا لعلـي أعـاود أن أكتـب فيهـا شـعراً وأرسـله إليهـا بـالبريد . وعـدت وقـد حصلـت علـى العنـوان ولكنهـا لـم تشـــجعني علـى الإقـدام علـى شيء .

كتبت خطابـاً أول مـا وصلـت أفيـض فيـه فـي وصـف مشـاعر رجل غيري .. يحب امرأة مثلها فماذا يفعل ؟ .. طلبـت منهـا أن تصـف دواء لهذا الرجـل ، عسـي أن يصـل إلـى ذروة الحـب مـع محبوبته . قلت لها ألا تترك الرجل دون علاج لموقفه . يجـب أن تكون الطبيبة وتكتب له تذكرة الشفاء . يبدو أنني أخطأت في أنـي تقمصت شخصية رجل آخر , ولم أعبر عن مشاعري الحقيقية . وكيف أستطيع أن أبثها لواعج نفسي وهي سيدة محترمـة .. لـم أتلق أي رد منها على خطابي . ولا وصفة شعبية لحالتي . ولعلها أرادت أن تقول لي : قـل لرجلك أن يذهـب كـل منهمـا إلـى حـال سبيله .

أمش سنة

****

خالف المثل القائل بأن على الإنسان أن يمشي سنة ولا يخطو من قناة . فقد أصر أن يقفز بنفسه في القنـــاة ، ويســبح حتــى الشاطئ الآخر ، ثم ينفذ بجلده من المطاردين . ولو اتبع المثل ، لكان الآن في عداد الأموات . وللحق به خفراء العمدة ، وفتكوا به . فالفتك عندهم خير من التحقيق والإدانة عن طريق القضاء . المشكلة عندهم تنتهي بالقضاء على الخصم أو المطارد ، ويُقــال عندئذ أن الهارب لم يمتثل للأمر بالوقوف ، فاضطر الخفــير أن يطلق النار على قدمه ، لكن الإصابة استقرت في ظهره ، ونفذت من صدره ، فمات في الحال .

والمطاردة كانت بسبب أن لحيته استرسلت ، وأنه يرتاد المســجد في مواعيد الصلاة ، وأنه يفتي ببعض الفتاوى في بعض الأحيان ، لأناس يغمض عليهم التصرف إزاء مشكلة معينــة ، فــأدعى العمدة أنه إرهابي ، فار من يد العدالة ، ولما كانت الحرية أغلى وأثمن ، فقد هرب من القرية ، ولم يفكر في العودة إليها . وهكذا اصبح العصر يسوده الاتهام الجزافي ، والإدانة المؤكدة ، لمجرد انه أتبع تعاليم الدين الحنيف . ولم يكن له أي اتصالات بجماعات إرهابية ، ولم يفكر في أي تصرفات فيها شيء من الإرهـــاب .

لكن هكذا العمدة يريد أن يظهر أنه يصفي الإرهاب في قريتـــه ، ومن ثم فهو يستأصل شأفته .

واتضح له وهو يندس وسط خلق الله في القطـــار أن الســـجن ليس جدران أربعة يُحتجز فيها الشخص ، إنما الســـجن هـــو أن تتغرب عن بلدك بالإكراه . وتكون شريـــدا فـــي كافـــة أرجـــاء المعمورة . فالحر الطليق بلا هدف هو كالسجين المقيد في زنزانة رطبة باردة . فماذا يفعل الآن وقد اصبح شريداً بعيدا عن عائلته . تذكر المثل السابق وهو يشعر أن جلبابه الفضفاض قد بدأ يجف من أثر الحرارة التي تداهم القطار ، ونوافذه المفتوحة بالدرجـــة الثالثة تسمح لها بالنفاذ . وقال لنفسه لو اتبعت المثل لكنت الآن من الهالكين . والآن عليّ أن أتفادي بحر التشرد ، وليـــس قنـــاة واحدة . ليس من السهل أن يُخلع الإنسان من تربته ، ويتسنى له العيش بسلام .فهل أمشي سنة ، لأتفادى هذا البحر . أم أعوم فيه حتى أصل إلى الشاطئ الآخر . وأنا لا أدري ما إذا كان هنـــاك شاطئ آخر لهذا البحر . ربما يكون مثل بحر الظلمات ، وكانوا يقولون عنه أنه بحر بلا نهاية .

تاه في القاهرة ، بل تاه في قاهرة المعز لدين الله الفـــاطمي . ماذا سيفعل : أيتعبد فقط ؟ .. ومن أين يأكل ؟ .. وأين يســـكن ؟ .. هل يعيش مع هؤلاء المجاذيب الذين يحيطون بسور المســـجد من الخارج . المشكلة أنهم قد يلفظونه باعتباره دخيلاً عليهم . ثم إنه لم يتعود أن يتسول . كان في قريته طالباً محترماً . كل مـــا

أقترفه أنه تمسك بدينه ، وأطلق لحيته وحف شاربه ، وكـــان لا يتردد في الفتوى لأنه يظن في نفسه – بعد قراءاته الكثيرة – أنه أهل لها . إنه أشبه بالقابض على جمرة متقدة . لم يكن يظـــن أن ذلك الوضع يمكن أن يجر عليه ما حدث . لقد نما إلى علمه أن العمدة يريد أن يجرد القرية من خيرة أبنائها بزعم أنهم ضالعون في عمليات الإرهاب التي حدثت فيها . ووقع اختياره على عـــدة أسماء ، وكان اسمه واحداً منها .وذلك حتى يظهر أمام السلطات كأنه حامي من حماة الأمن في القرية . وهكذا ضاع بين الأقدام .

قرر أن أول خطوة يتخذها أن يخلع الجلباب . وأن يرتدي تلك الثياب الإفرنجية . وأن يزيل هذه اللحية الطويلة حتـــى تطمـــس الوصمة التي يريدون أن يلحقوها به .غير أنه وجد مقاومة عنيفة بين فكره القديم وأفكاره الجديدة .وأدرك أن تلك الإجراءات التي سيتخذها هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ نفسه من الهلاك . لقد هلـــك من قبل سقراط حينما لم ينصاع إلى رأي أهل أثينا ، بل هلـــك من بعده جاليليو حينما أصر على أن الشمس مركز المجموعـــة الشمسية والأرض تابع لها ، فجن جنون الرهبان ، اعتبروا أقواله زندقة . وهلك أيضاً من قبل الإمام أحمد بن حنبل ، وهو يعارض المعتزلة الذين كان معهم أمير المؤمنين في ذلك الوقت .

وبدأ يتقدم إلى المحلات المختلفة يطلب عملاً غير أن قدميـــه أصيبتا بالكلل ، ولم يجد أحداً يقبله عاملاً . ولو كان العمدة يؤمن بحرية الرأي ما دامت لا تضر المجتمع ، لما كان ذلك حالـــه .

كيف السبيل إلى تطوير هذه العقليات في هذا الزمن الغريب ؟ ..
كيف نتشدق بحرية الرأي وفي نفس الوقت لا نعمل بها ؟ .. هل يعود إلى قريته ، ويتلقي مصيره بصدر رحب أم يستمر في الهرب ؟ ..فلم إذاً قفز في القناة ، وعبر إلى البر الآخر ،ولم يمش سنة ؟ ..

الخبيرة

****

يعرف جيداً ان الفندق منقسم إلى قسمين . قسم لإسكان الطلاب والطالبات . وقسم آخر لإسكان المترددين العاديين على الفندق . ورغم انه ليس طالب علم . غير أنه أختار النوع الأول ليسكن فيه توفيراً للنفقات . ومن مميزات هذا النوع . أن ايجاره الأسبوعي أقل بكثير من إيجار اليوم الواحد لحجرة في النوع الثاني . فهو يدفع ماقيمته خمسة وسبعون دولاراً أجراً لحجرة مشتركة مع زميل . ولو كان أختار حجرة من النوع الثاني لكان ايجارها اليومي مائة وثمانية وثلاثون دولاراً في اليوم الواحد .

كان يجلس في بهو الفندق حينما رآها . وجلست بجانبه تنتظر أن ينتهي الشاب في جناح الإستقبال بالفندق من مناقشة بعض الزوار . سألها بلغة انجليزية :

- من أين ؟ .

أجابت ببساطة ، لا تجد غضاضة في التحدث إلى غريب :
- من ايرلندا .
سأل كأنما يستدرجها إلى الكلام :
- هل انت في مهمة هنا ؟ ..
قالت بفخر :
- أنا خبيرة في الزراعة . جئت في مهمة عمل مع البنك الدولي .
سأل وقد وجد أن الصيد قريب منه :
- وكم من الوقت سوف تقضين ؟ ..
أجابت : حوالي شهر أو أكثر من شهر .
سأل : وهل تسكنين في هذا الفندق ؟ ..
أجابت : أسكن في حجرة في الدور الخامس .
أندهش وقال على عجل :
- ولم لا تسكنين بالدور الأول ؟ ! ..
- وما الفرق ؟ ..
- في الدور الأول نوع من الحجرات يسمى " افشينسي رووم " يكون فيه ايجار الحجرة أرخص بكثير . ربما تصرفين عشر أضعاف الأجرة لو قضيت وقتك في الحجرة بالدور الخامس مع أنك يمكن أن تستفيدي من حجرات الدور الأول فتدفعين أجرة يوم في الدور الخامس مقابل أجرة الأسبوع في الدور الأول .
معقول . في ذلك وفر كبير لي .

قاما معاً لمقابلة المستقبل بالفندق . شاب أشقر ذاو عينين زرقاوين . وشارب خفيف . يبدو أنه يتمتع بروح مرحة . سألته :

- لم لم تدلني على " الإفشينسي رووم " بالفندق ؟

أجاب بمرح : حتى نأخذ منك نقوداً أكثر .

ضحكت وقالت : إذاً فأنا أريد أن انتقل إلى حجرة منها ؟ ..

أجاب الشاب : الأمر متعذر ياسيدتي .

- كيف ؟

- لقد امتلأت الحجرات بطلاب وطالبات جامعة جنوب شرق كاليفورنيا .

مال عليها وقال :

- لا تهتمي سوف آخذك إلى فندق في أطراف واشنطن يمكن أن تستأجري فيه الغرفة بثلثمائة دولار في الشهر .

صاحت بغبطة :

- حقاً ؟؟ ..

يأخذها من يدها ليركبا معاً المترو إلـى أطـراف المدينـة . وهناك يمشيان في شارع ظللته الأشجار . وحنت عليه بأوراقـها الخضراء . وشما أريج الزهور فأنتعشت . وتجاذبا الحديث وهي تلهج بالشكر على ما سيوفره لها من مـال . واغتبطـت حينمـا وجدت أن الحجرات تطلب المزيد من الرواد . ودفعـت ثلثمائـة دولار . وعادت معه إلى الفندق الأول لتحمل حقائبها إلي الفندق

الجديد . وهو يتأمل جمالها طول المسافة بين طرف المدينة ومركزها . ويحاول أن ينتقل من موضوع إلى آخر لعله يجذبها إليه . بل صعد معها إلى حجرتها بالفندق لتجميع حاجياتها . وتردد ان يقدم على فعل شيء . ولم يحاول أن يحتك بها فيتولد الشررويحدث المراد رغم أن لاحت له أكثر من فرصة. وتوقف أمام جمالها الأخاذ دقيقة وحاول أن ينحني ليطبع قبلة على شفتيها . لكان احترامها الزائد لنفسها منعه . شعر أن الخبيرة امرأة محترمة . وقد تنهاه عما يجرؤ أن يفعله . إنها ليست امرأة عادية . إنها تجبرك على احترامها وعلى توقيرها رغماً عنك .وليترك الأمر للأيام فقد تتوثق أواصر الصداقة بينهما ويتمكن من يلمس كل شيء فيها . وحمل معها الحقائب إلى الفندق الجديد . وصعد معها إلى حجرتها ووضعا الحقائب . وهي تقول : إن الحجرة رائعة . أشعر انني سأنام حتى الصباح ولو اني سأذهب إلى حفلة استقبال يقيمها ايرلندي صديق في المساء .

– إذاً أستأذن في العودة إلى فندقي .

– وهو كذلك .

لم يبدر منها ما يجعله لا يتزحزح . تعامله كما لو كان غريباً . يبدو أنها لم تقع بعد في غرامه . ولعل احترامها لنفسها لا يسمح لها أن تجذبه إليها .

– أرجو ألا تتوقفي عن الإتصال بي في أي وقت من أجل أي خدمة تريدينها

- وهو كذلك .

يشعر وهو يخرج من حجرتها أنه خسرها . ولو لم يدلها على هذا الفندق لكانت - ربما - لا تزال تقيم في فندقـــه . ولتوثقـــت الروابط بينهما . هذا هو ما فعله فـــي نفســه . ضيـــع الصيـــد الإيرلندي من يده .

غير ان اليأس لم يتسرب إليه . حاول في اليـــوم الثـــاني أن يتصل بها . فأجابه المستقبل إنها غادرت حجرات الفندق الخاصة به إلى حجرة أخري يمتلكها شخص آخرفي نفس الفندق ولكن لا يعرف رقم هاتفها . انزعج . وتردد على الفندق حتى عرف أنها اصبحت صديقة لآخر واتضح أن أحـــد أصحـــاب الحجـــرات المستأجرة بصفة دائمة أعطاها حجرته لتسكنها مقابل مبلغ مـــن المال أقل من ثلثمائة دولار في الشهر لأنه لا يعيش في الحجـــرة ويعيش في بلد آخر قريب من واشنطن . واستردت مـــا كـــانت دفعته للفندق لتعطيه لصاحب الحجرة . كيف ألتقي بها هذا الرجل ؟ .. وكيف عقد معها الصفقة ؟ .. ومتى ؟ .. المهم أن كل مـــا يعرفه الآن أن لا سبيل إلى الأتصال بها بعد أن فقدها .وشعر أن احترامه لها يمنعه أن يسأل عنها مرة أخرى .

قادمة من هايتي

****

رآها جالسة في بهو الفندق ، عيناها تشع كأنها حجر من الأحجار الكريمة . لما جلست بالقرب منه . بادرها قائلا بلغة انجليزية : لم تتلألأ عيناك هكذا . ابتسمت مستغربة كلماته . وسألت : وكيف عرفت ؟ .. قال : ألا تعرفين أنني خبير من خبراء الإشعاع . ضحكت كأنه يقول نكتة أعجبتها . سألها وهو يرى سواد بشرتها يلمع . : هللا انت أمريكية . قالت : أنا قادمة من هايتي . وتذكر أنه يعرف أن أهل هايتي من أصحاب لون البشرة الأسود . وسألها على الفور : إذا إن لغتك الأصلية هي الفرنسية ؟ .. قالت : مؤكد . إن لغتي الثانية هي الإنجليزية . سألها مرة أخرى : وماذا تعملين هنا في واشنطن دي . سي . قالت : أنا أدرس . الغة الإنجليزية .

سألها : هل لديك مواعيد غداً ؟ .. أجابت : غداً الأحد وليس لدي مواعيد . سأل : ما رأيك لو تأتين معي غداً لرؤية المتحف الطبيعي ؟ قالت : وما المانع ؟ ..

ألتقي بها في اليوم التالي في بهو الفندق . طويلة القامة . رشيقة . حلقت شعرها الأكرت مثل الولد . يبدو ان لا ينبت أكثر

مما ينبت الآن . لا تخلو من الملامح الزنجية . الشفتان الكبيرتان . والوجه الناعم . والأنف . والعينان السودوان .

سألها : أتريد أن تذهبي بسيارة أجرة أم بالمترو ؟ .. أجابت بسؤال : هل انت ثري لهذه الدرجة ؟ .. ما المانع أن نركب المترو ؟

– وهو كذلك .ز كنت فقط أخشر أن ترفضي المشى حتى " دبون سيركل " حيث المحطة الرئيسة للمترو .

– أبداً أنا لا أمانع . إنني لا زلت شابة . سألها : كم عمرك . نظرت إليه متصنعة الغضب :

– هل هذه الأسئلة تسأل للنساء .

– لا بطبيعة الحال . ولكن يبدو من مظهرك أنك لا زلت في الثامنة عشرة من عمرك . وتتكلمين كأنك داخلة إلى سن الأربعين .

في المتحف جالا معاً لرؤية حيوان ما قبل التاريخ . الديناصور .. الإنسان الأول . أنواع أخرى لا تحصى من الحيوان . سألها : هل أفطرت ؟ ..

– لا .. لم أفطر بعد ؟

– ما رأيك لو تناولنا أفطارنا في كافتيريا المتحف ؟

– لا مانع عندي .

تأكد انها لا تنوي ان تستغله . غير أنها لم تحاول أن تدفع على الأقل حسابها . ويبدو ان العرف في هايتي يختلف عن العرف في امريكا . هناك إذا دعا الرجل المرأة فيلتزم بالصرف عليها . أما هنا فدون أن يصرح الرجل يتكفل كل واحد منهما بدفع الحساب عن نفسه .

انتهت مشاهدة المتحف . وخرجا يبحثان عن موقع محطة المترو . ووجدا بالقرب منهما حديق ، عرض عليها ان يخلدا إلى الحشائش في ذلك الجو الربيعي في واشنطن دي .سي . لم تمانع . وجلست بجانبه على مقعد كبير في الحديقة . غير أنه التصق بها . ثم أحاط كتفها بساعده . وقال : سمعت أن الجو في واشنطن حار في الصيف بارد في الشتاء . أضافت : يبدو ان أجواء الربيع قليلة فيها . قد يكون شهر أكتوبر من شهور الخريف لكن الجو فيه يكون كجو الربيع . نظر في عينيها وهو يقول : أرى الربيع في عينيك . مال عليها وطبع قبلة على خدها فلم تعترض . ثم عاد وطبع قبلة على شفتيها فلم تعترض .

حينما عادا إلى الفندق ، صافحته بحرارة وتركته دون موعد جديد . لم يجرؤ أن يسألها موعداً آخر . لكن صعد معها إلى الدور الأول فوجد ان تسكن في غرفة قريبة من غرفته . رفع لها يده محيياً وهو يقول : إلى اللقاء مساء .

أطرق بابها في امساء . وهو يحدث نفسه : لا أهمية لكونها زنجية . إنها مليئة بالأنوثة . ولا يجوز أن تفلت منك .

فتحت الباب وهي تسأل : ماذا تريد ؟ .. قال : ألا تريدين تناول العشاء معي ؟ .. قالت : أدخل .

دخل وهو متهيب الموقف . جديد عليه أن يدخل حجرة امرأة بناء على دعوة منها . لما دنا منها يحاول ان يقبلها صدته قائلة : لا تنس أنني امرأة متزوجة . قال آسفاً : لا أعرف . قالت : ها انت قد عرفت .

- وأين زوجك ؟ .ز

- إنه في هايتي ؟

- ولم لم يأت معك ؟

- لأني جئت لأتعلم . فماذا يفعل تاجر في امريكا .

وهل لديك أطفال ؟ ..

- لا .. لم أرزق بعد بأطفال .

وم من العيب ؟

- ربما من زوجي فهو عجوز ..

ولم تزوجت عجوزاً مع أنك شابة تتمتعين بأنوثة فياضة وألف رجل يتمناك ؟

- ظروف .

دنا منها ولفها بيديه وطبع قبلة على شفتيها استمرت فترة من الوقت .. ثم كادت تسقط منه غير انه دنا من الفراش .بها .

رفضت في اليوم التالي أن تستقبله في حجرتها وقالت غنها على وشك الخروج . ورفضت ان تحدد زمناً جديداً لتجديد اللقاء

. واستغرب منها هذا التصرف ، لذلك قرر أن يهملها . وسمع طرقاً على الباب في يوم بعد ذلك وفتح فرآها واقفة تطلب منه موسي لحلاقة ذقن الرجل . فأسرع وأعطاها الموسي . قالت له : شكرا يا وحش . واستغرب منها هذا القول . ورأي وهو يغادر حجرته رجلاً يخرج من حجرتها . لا يمكن أن يكون زوجها فهذا شاب أسود وزوجها عجوز كما قالت .

وبعد أيام رأى التي رفضت أن تركب سيارة أجرة للذهاب إلى المتحف الطبيعي ، تركب سيارة أجرة . جاءت حتى باب الفندق بناء على طلبها . لم تحاول ان تلقي السلام عليه . تجاهلته . تساءل : هل كانت تريد مالاً في تلك الليلة التي استغرقت طويلاً . وهي ترفض باباء أن يمسه ؟ .. لعلها احترفت لذلك كان المال سهلاً ميسوراً في يدها . ولم يرها بعد ذلك في الفندق . غادرته منذ ذلك اليوم . . مع رجل عجوز لم يره من قبل معها . وكان وجهها في ذلك اليوم كظيم .

الطوفان الجديد

****

في وكالة الأرصاد الجوية ، خرج جون من مكتبه منزعجاً ، متوجهاً إلى مدير الوكالة ، ودخل عليه ، ووجده يقرأ في جريدة الصباح ، بادره قائلاً :

– إن حرارة الجو تزيد عن معدلها في السنوات القادمة بخمس درجات . أكاد أشعر أن حرارة الأرض على وشك أن تتغير ، مما يؤكد أن ذوبان الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي سوف يكون عارماً .

سأل جونسون مرءوسه :

– ما هو في رأيك السبب ؟ ..

قال جون متفكراً :

– إنه ليس سببا واحداً . قد يكون عدة أسباب . ربما يكون دنو الأرض من الشمس . قد يكون زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو . قد يكون إجتثاث الغابات ، الغطاء النباتي المقاوم للحرارة .أو كل هذه الأسباب .

قال جونسون بجدية :

– أكتب تقريرك . وسوف أرفعه إلى أعلى المستويات .

حينما قرأ بيتر مدير مكتب رئيس الجمهورية ذلك التقريـــر ، أشر عليه :

أقترح أن تبدأ الحكومة في بناء ناطحات عملاقة من الســفن . تسع الواحدة عشرة آلاف فرد . تكون حصناً للمواطنيــن مــن الضياع من الطوفان القادم على الأرض . على أن تكون السفينة الواحدة مأوى لبعض المواطنين ومزرعة من خـــلال الصوبـــات والهواء المكيف ومصانع صغيرة تكفي نفسها بنفسها تنتـــج كـــل المواد الاستهلاكية المختلفة . لا أهمية أن تتحرك السفينة علـــى وجه البحر إنما يكفي ألا تتعرض للغرق فـــي الميـــاه الضحلـــة أو العميقة ، إنها بمثابة دار كبيرة للعائلات البيضاء .

أشر رئيس الجمهورية ببناء السفن علـــى الفـــور . وبـــدأت شركات صناعة السفن في بناء السفن العملاقة التي سوف تطفـــو على وجه الماء وتكفي ذاتها بذاتها . وتمت مخاطبـــة الشعـــوب البيضاء للمشاركة في هذه العمليات الفذة في سبيل إيواء الإنسان الأبيض بعيداً عن الطوفان .

تسرب الخبر إلى أحد الزنوج العاملين في صناعـــة الســـفن . وتمكن من سرقة التصميم الجديد للسفينة . وبعـــد عســـر قـــابل المليونير الأسود باتيست . وتلقى المليونير الخـــبر منزعجـــاً . وتأكد بعد لأي أن الحكومة تنوي إيواء البيض في هـــذه الســـفن العملاقة وقت الطوفان الجديد.

سافر المليونير الأسود إلى مصر . وهنـــاك قـابل الرئيـس المصري وشرح له المخطط بوضوح أن الطوفان آت لا محالة ، وأن وجه الأرض سوف يغرق تماماً ، ولن تكون هنـــاك أرض يحيا عليها الإنسان وأن الرجل الأبيـض يخطـط بالنجـاة دون الإنسان الأصفر أو الأسود أو الأحمر . وأن على الرئيس أن يبدأ من الآن في بناء هذه السفن العملاقة ليأوى إليها الناس في كـل مكان .وبذلك يتمكن من إنقاذ الأجناس الأخرى من الغرق .

لم يتأخر الرئيس المصري واجتمع سراً بالرؤساء الأفريقيين وقرروا البدء في بناء هذه السفن سراً بمساعدة مـن المليونـير الزنجي . وسرب المليونير الخبر إلى رؤساء الشعوب الصفراء . وبدأوا – هم الآخرون – في بناء السفن العائمة علـى صفحـة البحر .

وفي الساعة السابعة صباحاً شعر المراقبون أن المياه تفيـض ببطء على الشواطئ . وأن اليابس يكاد يُبتلع من الماء . بنظام تام بدأ الرئيس الأبيض يأمر شعبه بالتحرك إلـى السـفن العملاقـة ليباشروا أعمالهم هناك ويعيشوا حياتهم في قمرات هذه السـفن . ويزرعوا ويصنعوا ويخدموا أنفسهم بأنفسهم . وطيرت وكـالات الأنباء الخبر إلى جميع أنحاء العالم ، فهبت كل الشعوب متوجهة إلى السفن التي بنتها دولهم .

غطت المياه سطح الأرض . وآوى الإنسان إلى الفلك الجديدة واختفت الحياة من على وجه اليابس . ماتت النباتات وكل أنواع

الحيوان فيما عدا ما أخذه الإنسان على سطح السفن العملاقة ليتوالد ويتناسل ويتكاثر هناك . ولم يستمر حياً غير افنسان وانواع الأسماك المختلفة في الأنهار والبحار والمحيطات .

وبينما سادت الديمقراطية في سفن الجنس الأبيض . عمت الديكتاتورية في بعض سفن الإنسان الأسود أو الأصفر . واختفى الإنسان الأحمر تماماً ، لأن الرجل الأبيض رفض أن يخطره بالتوجه إلى سفن المأوى الجديدة مثلما رفض دخول الزنوج إليها ، ومن ثم أبحروا إلى الدول الأفريقية للعيش فوق بحارها وتحت سمائها .

أصبحت السفن جزراً مستقلة بعضها عن البعض الآخر . فيما عدا سفن الرجل الأبيض فقد كانت فيها مرابض للطائرات ، يمكن أن ينتقل فيما بينها الرئيس المنتخب من عموم الشعوب البيضاء ، ويتفقد حال المواطنين بها . وأمر رئيس الشعوب البيضاء بوقف التناسل مؤقتاً أو التناسل بقدر حتى تزول الغمة . ولم يستطع رئيس الشعوب الصفراء والسوداء أن يأمر بذلك . ولكن أمر أن يبدأ المفكرون في اجتثاث أسباب المشكلة حتى تعود الأرض إلى ما كانت عليه .

اجتمع نفر من العلماء السود والصفر وقرروا أن حل المشكلة لن يكون إلا بتضافر جهود شعوب الأرض . وأن عليهم أولاً أن يبدأوا في تخفيض حجم المياه على الأرض وبذلك ينحسر الماء عنها . وبعد ذلك يعود كل شعب إلى أرضه . ولما انضم إليهم

العلماء البيض أقترحوا تجميد الماء وفي نفس الوقت العمل علـــى تحليله إلى عناصره الأولية (أكسجين وأيدروجيـــن) . والعمـــل على امتصاص ثاني أكسيد الكربون من الجو وتعبئته في أنابيب كبيرة الحجم حتى يمكن تخفيض درجات الحرارة علـــــى وجـــه الأرض .

بذل الإنسان جهداً كبيراً حتى تمكن أن يشق طريقه وسط الماء للكشف عن مناجم الحديد . وكان هدفه بناء ثلاجات عملاقة يمكن تجميد المياه فيها وبحيث تمتص ما على الأرض من فائض المياه المالحة . والبدء فوراً ببناء مصنع لتحليل الماء على سفينة مـــن السفن إلى عناصره الأولية .وامتصاص ثاني أكسيد الكربون من الجوفي مخازن حديدية لا تنفذ منها إلا كلمــا تتطلــب الإنســان ذلك .

استغرق ذلك المجهود مائة عام كاملة . ويوماً خرج رجل من قمرته ليستطلع حال الجو فرأى أمامه اليابسة قد انحســر عنـــها الماء . بل شاهد عن بعد بعض النباتــــات قـــد فرشـــت الأرض وروتها باللون الأخضر . وشاهد الأسماك تتلوى تريد أن تقفــــز إلى البحر هرباً من الأرض الجافة .

انحسرت المياه تدريجياً وبدأ الجو الأرضي يتلطف وشعر أن عليهم أن يعودوا من جديد إلى الأرض لتعميرها .

ديار سمية

****

هذا حب من طرف واحد أذيع أخباره لعل الحبيبة تتصل بي .
وتروي الشوق المتعطش لرؤياها من جديد ، فهي لم تغرب عن
ذاكرتي أبداً . لعلها تذكر ذلك الشاب الأسمر الذي كان يتبعها
كظلها من المدرسة الثانوية في مصر الجديدة إلى بيتها في سراي
القبة .. وكان لا يتمكن من أن يدنو منها أو يحاول أن يعاكسها أو
حتى يتكلم معها . كان فقط يتطلع إليها . يتأمل جمالها الرائع
وقوامها الرشيق ووجهها الناعم الصبوح الخالي من المساحيق .
وهي تسير تحمل حقيبة كتبها .. تحتضنها في صدرها . وهو
يحمل حقيبة كتبه في يده .

لعلك تسالين يا فتاتي الآن لم لم يكن يتقدم منك ويكلمك .
ولكنك لو عرفت لربما .. تغفرين له .. ماذا يحدث حينما تعرف
الحبيبة أن حبيبها يعاني من الفقر المدقع ويملأ القنوط قلبه في
الوصال ..سوف تتباعد عنه وهو سوف يتباعد عنها ، لأنه لن
يعرف كيف سيدعوها مثلاً للجلوس في ملهى ، ويطلب لك
فنجان شاي بل فنجانين واحداً لها وآخر له . كان ذلك سيكلفه

الكثير . بل لم أكن أقوى عليه . فهل تظنين أن الحب يعشش في حضن الفقر . اكتفيت بالتأمل يا فتاتي . يسمون ذلك حباً من طرف واحد . وحينما تعمقت في الفلسفة عرفت أنه حب أفلاطوني .

أتعرفين ؟ .. كنت تسكنين في سراي القبة أو لعلها حدائق القبة ، وأنا أسكن في منشية البكري . كنت بعد أن أركب بالقرب منك في الترام الأبيض المزدحم نقطع المسافة معاً من روكسي إلى سراي القبة . أدخل معك من الشارع الرئيس بالقرب من قصر الطاهرة . ونمشي قليلاً ثم تدخلين في ممشىٍ حتى تصلي إلى تلك الدار المكونة من طابقين . وأعود قافلاً إلى منشية البكري البعيدة عن سراي القبة . أمشي حتى تكل قدماي . ولكن لا أستطيع أن أتوقف عن الحب .

وطرت يوما من السعادة . وحلقت في الفضاء . وأنا أعرف لأول مرة اسمك ، حينما قابلت في الطريق خادم . يبدو أنها عملت زمناً طويلاً لديك في داركم لأنها صرخت في الطريق منادية بصوت عال : ست سمية .. ست سمية . وارتسمت ابتسامة على شفتيك كأن السعادة حلت بك حينما عرفتُ اسمك .

هل كان ذلك اسمك أم كنية . لا أعرف . بعد أن صافحتك الخادم واحتضنتك . كنت أتمنى أن أكون مكانها . ولو قلت لك ست سمية . أقبلك مثلما قبلتك . لكن هل كان ذلك يحدث في الطريق بين رجل وامرأة . يمكن أن يحدث بين امرأتين . لكن

هو الخيال الخصب الجـــامح . لعلـك لا تعرفيــن أن المحــب الافلاطوني يتمتع بخيال خصب . يهيم فيه المحب بالمحبوب لكن لا يفعل شيئاً . الخيال لا صلة له بالواقع . ولا صلة لـــه باتخـــاذ خطوة أو خطوات نحو الحبيب . كل ما فعلته أن قلت هامساً لك : وعرفنا الاسم . ولكن لم أفعل شيئاً بعد ذلـــك . لعلـك كنـت تنتظرين خطوة مني . لكن الحواجز المدفونة في عروقي حـــالت دون أي تقدم . لعن الله الفقر .. حرمني من السعادة في الحـــب . وغرز في قدمي التخاذل . لكن ليس هو الفقر الذي أغدق علـــيّ اليأس . عرفت فيما بعد أنه الافتقار إلى الجرأة . فقد كـــان لـــي صديق ينتظر حبه معي ، حينما يخرج مـــن المدرســـة – نفــس المدرسة التي كنت مسجلة فيها – وكان يتكلم معها .. وتتكلم معه . ويمشيان معاً ولا يركبان الترام الأبيض المتجـــه إلـــى ميـــدان الجامع في مصر الجديدة ، إنما يسيران حتى ذلك الميدان كأنهما عصفوران يتناجيان . ولم يفكر أن يشتري لها لباً أو حمصـــاً أو فولاً .. إنما غذاؤهما الوحيد المناجاة فحسب . ولا يمـــلان مـــن اللقاء التالي . وكان مثلي فقيراً ولم يتراجع عن حبه حتى بعد أن عرف أن أباها مليء . يكسب في اليوم عشرات الجنيهات . حقاً أرتعد في البداية بعد أن عرف أن أباه يعمل جـــزاراً وصـــاحب محل للجزارة . خشي المسكين على رقبته لكنه اســـتمرأ الحـــب المتبادل .

لا تظني يا فتاتي أنني امتنعت عن حبك بعد أن اغلقت المدارس أبوابها . وصرنا نستذكر بشدة لامتحان التوجيهية . ودخلنا الامتحان ولم نهان . كنت أمر على الديار ..ديار سمية . أحاول أن أراك في الشرفة أو خلف النافذة لكن لم يحدث ذلك . بدلت المواعيد من الصباح الباكر إلى الظهر ذي القيظ وحتى العصر القريب من المغرب حين تتلطف الحرارة على الخلق بالنسائم . لكن مثلما كان الحب من طرف واحد لم تثبت رؤية القمر على الإطلاق . إن الشوق برح بي ولكن الحب لم يكتمل ولم يتصل طرفاه .

ماذا أقول ؟ .. مشاغل الحياة حالت دون الاستمرار . يبدو أن الجامعة شغلتني . ويبدو أنك بقيت في البيت أو دخلت كلية غير كليتي . ولم نلتق منذ ذلك الحين . منذ أن طلبت المدارس أن نبقي في بيوتنا استعداداً للامتحان . كل ما بقيت أتمناه أن يكون هناك لقاء بيننا . تعرفين فيه من أكون وأعرف فيه من تكونين . نتحدث طويلاً حديثاً ليس له نهاية ولا بداية . حديثاً ممتعاً دون شك .أقول لك لقد ذهبت إلى ديار سمية . لم أجد أطلالاً إنما وجدت عمارة سامقة فأنتهي أي أمل لي في اللقاء إلا إذا قرأت هذه الورقة واتصلت بي . فأنا لا زلت أذكرك وقلبي ينبض بحبك .

أنتم ونحن

****

حينما اشتدت وطأة المرأة عليهم ،ذهب رب العائلة إلى إمـــام الجامع يستغيث به فيما ينبغي عمله . أصغي الإمام الضريـــر إلى أقوال رب العائلة ، وهو يرويها بصوت مختنق ، وبدا كـــأن الغيظ ضغط على صدره ، وفقد لسانه النطق السـلس . وبـدأت أبخرة الغضب تتصاعد ، ومحلول الصبر يجف في الفؤاد ويتهشم مسحوقه . هز الإمام رأسه شمالاً ويميناً . وقال بتواضــــع : إن الأمر جد بسيط . وإن رب العائلة لو ترك الأمر له لأنتهي منـــه في دقائق . انشرح صدر الرجل ، وضمه إليه شاكراً .

عندما انتهت صلاة الظهر ، وصلى الرجلان النافلة ، اســتند الشيخ الضرير على ساعد رب الأسرة . وقال له هامساً : خذني

إليها . اضطر رب العائلة أن يشير إلى الشيخ الضرير إلى معالم الطريق حتى يتخذ حذره وهو يسير مستنداً إليه . حجر يمكن أن ترتطم به قدمه . كثبان من الرمال أمام بيت يرمم . ترعة تركتها الأمطار فصنعت عجينة طينية صارت ملعباً لصغار الأطفـــال . انتهت الحارة وبداية حارة جديدة . بيت في المواجهة يجب تفاديه . وبيت آخر في زقاق .. ويدخلان من زقاق إلى آخر .. ومـــن عطفة إلى أخرى . والبيوت التي لا لون لها تختفي مــــن أمــام النظر . وتحل بدلاً منها بيوت لها لون . الأولى أقرب إلى اللون الكالح من اللون البراق والثانية بدت ناصعة متفتحة .

تحمل رب العائلة ثقل الرجل الأعمى ، وهو يستند إلى ساعده بقوة ، ويكاد يرتخي بجسده عليه . ومضى يمشي بجانبه يحذره ويرشده وهو يحاول أن يسري عنه بكلمـــات .. فيـــها مجاملـــة وملاطفة . إنه ذاهب معه ليجتث ذلك الأثم المتواصل . أثم هـــذه السيدة التي أطلقت للسانها العنان ، ولم تستطع أن تلجمه . وأهل بيته ضجوا منها وهم يحاولون تحاشيها لكنها تريد للمواجهـــة أن تكون مستعرة . امرأة غريبة الأطوار . تشتـــم وتســب وتلعـــن وتطلق لعقيرتها العنان .. دون أن تهدأ . تأخذ قسطاً من الراحـــة في أي وقت تشاء بيد أن صوتها يمكن أن يرتفع في الفجر .. أو عند العصر .. أو في أنصاف الليالي . يبدو أنها جنت أو مســـها الجنون . لسانها لا يتوقف عن التنابذ بالألقاب واللمز الرخيـــص وما يمكن أن يدخل في باب جرائم السب العلني ، لكن أحداً لـــم

يتمكن من ردعها أو إبلاغ الشرطـــة بشأنـــها احترامـــاً للجـــيرة ولذكرى والدها الرجل الطيب .
رأتهما وهما قادمان ، فظهر واضحاً أنها تريـــد أن تتحـــرش برب العائلة وذلك الشيخ الضرير المصاحب له .ولم تكن تعرف أنهما صديقان منذ الطفولة . رب العائلة دخل مدرسة المعلميـــن وتخرج مدرساً . والضرير ألتحق بالأزهر الشريف وتخرج إماماً ومقرئاً .

قالت المرأة دون ما داع :

- من هذا الذي يصحبك يا جار الشؤم .. أجئت به تؤدبني . ما قليل الأدب غيرك .

بهر السيخ من ذكائها الفارط ولسانها المقذع ، ابتدرها قائلاً :

- وأنتم كذلك .

قالت المرأة تاركة رب العائلة ماسكة زاوية الشيخ :

- نحن .. نحن أهل المروءة والكرم . نحن أبناء الأصول وذوي السمعة الطيبة والرفعة .. نحن والأدب صنوان ..

رد الشيخ عليها قائلاً :

- ونحن كذلك .

اغتاظت المرأة فقالت :

- انتم أبناء الأفاعي .. أبناء السفلة .. أبناء لا أباء لهم ولا أمهات ..

رد الشيخ الضرير مبتسماً :

– وأنتم كذلك ..

هزت المرأة جسدها كأنما تنفض ما فيه من غيظ وغضب وقالت :

– نحن من كرام القوم .. نحن البررة .. نحن أهل الكرم والجود والرفعة . نحن لا مثيل لنا في البلاد .

قال الشيخ الضرير وقد فتر وجهه عن ضحكة :

– ونحن كذلك .

لم تصدق المرأة كلمات الشيخ . استغربت رنينها . ورب العائلة قد وقف بجانبه ما يزال يسنده كأنما يسانده ويدعمه .

أخذت المرأة تبحث في رأسها الصغير عن كلمات جديدة ثم قالت :

– أنتم جئتم الدنيا في غفلة من الزمن . أنتم لا مكان لكم بيننا .. أنتم حثالة القوم .. أنتم سقط المتاع .. أنتم لا قيمة لكم .. ولا أصل ولا فصل .

قال الشيخ بهدوء :

– وأنتم كذلك .

وهكذا ما بين أنتم ونحن اللتين امتدتا طويلاً دون ملل من جانب الشيخ . صرخت المرأة كأنما تستنجد عوناً . ودخلت بيتها وأغلقت بابها بإحكام .

يقول رب العائلة في روايته أن أحدا لم يرها بعد ذلك اليوم .

الشهر الخامس

****

حينما بلغني الخبر سررت جداً . وكسرت القاعدة التي وضعتها أمام الجميع ، وهي : إذا كنت مسافراً وعدت من سفري أتصل بالأحباب والأصدقاء بالهاتف ، وعليهم واجب زيارتي ، وعليّ واجب رد الزيارة ، فإن لم يزرني أحد ، فلا زيارة عليّ لأحد . غير أن النبأ هزني . وقررت أن أكسر القاعدة وأزوره لأهنئه تهنئة قلبية حارة . ومشاعري مفعمة بالشجن العميق .

استقبلني صديق العمر بالأحضان . وباركت له فشكرني بحرارة والدموع تملأ عينيه . ولم تختف الرغاوة من العينين طوال الجلسة . وكتمت أنا أيضاً الدموع في عيني ، وأنا أريد أن أنثرها وأذرفها بلا وجل .

كان صديقي قد تزوج بعدي بثماني سنوات . وكنت قد أنجبت ولداً وبنتاً . وكبرا حتى كاد الأبن أن يبلغ الثلاثين من العمر وكادت البنت أن تصل إلى الثامنة والعشرين . غير أن زوج صديقي كانت تتعرض لحالات إجهاض مستمرة . ما يكاد الجنين

يبلغ الشهر الخامس حتى يتقلص الرحم تقلصـــات قاتلـــة ويلفـــظ الجنين ويفرغ الرحم مما حمله طوال هذه الشهور . وكادت تصل حالات الإجهاض إلى ما يقرب من عشر حالات .

وقد أصيب صديقي في الآونة الأخيرة بالتهاب فـــي مجـــرى البول ، وبعد أن فحصه الطبيب ، رمقه بعمق وقال : لا بد مـــن إجراء عملية . اضطرب صديقي وقال للطبيـــب : ألا يمكـــن أن يحدث العلاج دون إجراء هذه العملية . فأنا حتى الآن لم أنجـــب وأعرف أن مثل هذه العملية تقضي على قواي ... وكادت غصة أن تقضي على تنفسه غير أنه قاومها وواصل الكلام : وامرأتـــي في طريقها إلى الغروب .. قد يستغرق ذلك ســـنة أو ســـنتين .. وتنتهي حصتها من الخصوبة . فألا يجوز أن تمـــهلني . نـــهض الطبيب وقال قولاً باتراً : أرجو أن أراك بعد يوميـــن لإجـــراء العملية . لكنه لم يذهب إليه . كان لديه أمل والدخول في غرفـــة العمليات سوف يقضي على ذلك المل . وعند طبيب آخر فحصه فحصاً جيداً ، شاهده يهز رأسه ويقول : الأمر لا يستدعي عملية . إنه ألتهاب بسيط ويمكن القضاء عليـــه بالتحـــاميل . وصـــدق

الطبيب وحمد ربه . ورأى وهو يصلي الفجر أن العناية الإلهيـــة تباركه .

جاءت زوجه تبشره بأنها حملت . فشعر باضطراب بليـــغ . وكاد يترنح في وقفته . أسيعود من جديد إلى عهد القلـــق . ثـــم يواجه بالحقيقة المرة . ويجد يداه تحمل الجنين إلى القبر .وهـــو يذرف عليه الدموع الساخنة .

أوصت زوجه قريبة لها بطبيبة نابهـــة .. وقابلتـــها الطبيبـــة ووضعت لها نظاماً عجيباً . قالت : إن الأطباء كانوا يربطـــون عنق الرحم في الشهور الأخيرة فيما مضى . قـــالت الزوجـــة ، وهي تستغرب : نعم .. هذا ما يحدث . قالت الطبيبة بثقة : أنا لن أتبع معك ذلك الإجراء . ثم تســـاءلت : وكـــان الأطبـــاء يطلبون منك الراحة التامة في الفراش .. أليس كذلك ؟ .. هزت المرأة رأسها وقالت : بلى . قالت الطبيبة مواصلة كلامها : أنا أطلب منك ذلك أيضاً . لكن أطلب شيئاً آخر لا تحيدين عنه .. لا لحوم على الأطلاق . لا أرز .. لا مكرونة .. خضـــار مســـلوق وفالكهة هو كل أكلك .. أنت بدينة ويجب أن ينخفض وزنك . لا

أهمية أن يأتي الطفل صغيراً هزيلاً . يمكنك فيما بعد أن تقويـــه وتنميه . ثم قالت قولتها الفاصلة : سوف تكون الـــولادة بعمليـــة قيصرية .

رقدت المرأة في فراشها . وجـــاء الشـــهر الخـــامس شعـــرا بالانزعاج لكنه كتماه في صدريهما غير أنه مضي دون اعـــلان لحالة الخطر . وتبعته كذلك الشهور الأربعة الباقية . هزلت فعلاً غير أن رحمها تمسك بالجنين . استغرب صديقي ذلك لكنه شكر ربه . أكثر من عشرين سنة ينتظر ذلك الطفل لكنه كان يخذلـــه في الشهر الخامس ويمضي .. لكنه في هذه المـــرة اســـتهزأبذلك الشهر وثبت يلعب في رحم أمه بيديه وقدميه الضعيفتين . يرفسها فتشكو من الألم لكن في نفس الوقت تحس بالنشوة . كانت تتمتع بالأمومة في مراحلها الأولى بشغف .هي سلواها الوحيدة وهـــي ترقد لا تعمل شيئاً .وقد لزمت بيتها أختها تعاونها . ويوماً دخـــل البيت فوجد ورقة تنبئه أنهما توجها إلى المســـتشفى إذ شعـــرت زوجه بآلام شديدة .. لم يأكل شيئاً رغم أنه في تلك الساعة يكون الجوع يقرص معدته ويدعكها بشدة . وتوجه إلـــى المســـتشفى .

وعند نافذة بجانب غرفة العمليات وقف يناجي ربه ويبتهل إليه . ويرجوه أن يحقق له الأمل . قرأ كثيراً من السور لكن ذاكرته لم تسعفه بالمزيد فطفق يكررها مراراً . خرجـت الممرضـة مـن غرفة العمليات وقالت : مبروك .. ولد .

كلمات في صورة برقية لكنها كفيلة بسحب الدموع من العيون . لم تفهم أختها وكانت قريبة منه المشاعر الجياشة التي أجتاحته ، فوقفت مشدوهة تتفرج عليه . كان لديها كثير من الأولاد فلـم تدرك شعور من يرزق بطفل بعد طول عناء .انبجست الدمـوع في العينين . واضطربت أحاسيسه . سقط لتوه في منطقة انعـدام الوزن بين المصدق والمكذب . ولم يجد غير جسده يسجى علـى بلاط المستشفي النظيف . ويسجد لله تعالي يشكره بعمـق علـى تحقيق الأمل بعد أكثر من عشرين سنة انتظار .

كان يروي لي الموقف والدموع تتجمع في عينيه .

وكنت أستمع وقد تحجرت الدموع في المآقي . تتماسك ويشد بعضها البعض وتمنع نفسها من الإنزلاق كأنما الرجولة تأبي على الرجل أن يسيح دمعه .

الصفاقة

****

ليس هناك شبه بين الأمــس واليــوم . ولا ينطبــق التعبــير المشهور ما أشبه الليلة بالبارحة . خلاف عميق بين اليومين . بل تناقض قائم . يعذبه ويلعب بمشاعره ويزيده ألماً .

بالأمس كاد أن يطير فرحاً . شعر أن وزنه قد خــف وأنــه محلق في العلياء ، وأنه إنسان سعيد بمعنى الكلمة . لم يظن أبداً أن الأحداث سوف تتلاحق وتجلب له هذا الكــم مــن الســعادة . والأمس ليس لحظة أو عدد من الساعات إنما كم كبير من الأيام . ولئن يتمتع إنسان بهذا الكم فقد بلغ المنى .

قابلها واتفق معها وتزوجها وزُفت إليه بشرى ســفر وتعــاقد وركب الهواء وتضخم جيبه بالمال لكن كانت هناك نقطة سوداء في ضباب السعادة الكبيرة . لكنها لم تكن تُرى . كانت مختفيــة في ضباب السعادة الرائع الأسطوري .

قبل أن يتعاقد ليسافر ، وقبل أن يتفق ليتزوج . قالت له بنعومة :

– أنا ليس لي عمل .. ولا مورد رزق .

قال مخففاً عنها :

– وما في ذلك أنا كفيلك بعد الزواج بل قبله .

– أريد أن أشعر بالأمان .

– اطلبي أي ضمانات وأنا ألبي .

– أريد منك صكا بخمسين ألف جنيه يُستحق في حالة إذا ما طلقتني .

– لكني لن أطلقك أبداً .

– هكذا الرجال يقولون ما لا يفعلون .

– لست من هؤلاء الرجال .

– إذاً لن نتزوج .. لا أستطيع أن أكون زوجك وأنا لا أشعر بالاطمئنان .

– لن أتردد . وسأكتب لك الصك لأني لن أطلقك لذلك لن يُستحق أبداً .

- وأنا من ناحيتي لن أطالب به أبداً إلا إذا طلقتني .

ووقع الصك وعقد القران . وهو يشعر أنه لم يتحر عنها كثيراً . ولم يعمل بقول المصطفى عليه أفضل السلام : " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس . " . كان الحب قد نشر ضباباً أسطورياً حول رأسه فأستسلم للمقادير والأهواء .

وفي الغربة لم يخفت أوار الخطابات . لكن قبل أن يستحق إجازته السنوية وصله منها خطاب أزعجه . كانت تريد منه أن يطلقها .. ما هذا الهراء ؟ .. ماذا أرتكب من أخطاء حتى تعذبه بطلبها الجديد . وقرر أن يعود حتى يعرف الحقيقة . كفت عن الرد على خطاباته .. تلك الخطابات التي أظهرت مدى الهوس الذي يعانيه . وقابلها . ودار بينهما حديث يشتعل ناراً ولا يجد من يطفئها .

- أنا زوجك .. فلم تعامليني هذه المعاملة ؟

- مثلما تم عقد قراننا بالمعروف فلننفصل بالمعروف .

- ماذا استجد حتى يحدث ذلك الانفصال .

قالت بقحة :

– الحقيقة أنني لم أعد أطيقك .. اكتشفت أنـــك لســت فتــى أحلامي .

ثم ازدادت وقاحتها وهو يسألها :

– هل هناك آخر ؟

– نعم .. هناك آخر . أكثر منك ثراء . حقاً أنت أكثر شبابـــاً لكن ليس ذلك ضمن حساباتي .

صعد الدم في رأسه . وكاد أن يصفعها ، لكنه تراجع . عليـــه أن يكون متحضراً حتى النهاية . قال وأعصابه تكاد تفلت منه :

– أطلقك بشرط .

– وما هو هذا الشرط ؟ ..

– أن تردي لي الصك الذي كتبته على نفسي . أن تســـتحقي خمسين ألف جنيه إذا ما تم طلاقك . غضبت وقـــالت بصفاقـــة كالمتسائلة :

– لكنك سوف تطلقني ؟ ..

أغتاظ وشعر أن داخله يحترق لكنه لا يكشف عـــن شـــواظ . شعر أنه مطعون في صدره . وكادت تفلت آهة من حنجرتـــه .

أدرك أنه لم يوفق في اختياره . وأن الضباب الذي كان ينتشـــــر حول رأسه أنقشع وظهرت الصورة كئيبة قبيحـــة بشكـــل غـــير منتظر . أجاب على تساؤلها الأخير :

- كنت قد كتبت ذلك الصك بشرط أن أطلقك لا في حالـــة أن تطلبي الطلاق واستجيب .

استمرت في صفاقتها قائلة :

- إنه يُستحق في حالة الطلاق سواء طلبت أنا أو فعلت أنـــت من تلقاء نفسك .

بيت النجار

****

المعروف عنه أنه رجل تقي لا يؤخر صلاة ، ولا يترك فرضاً ، ورع ، يده كما يقول فرطة ، يزكي ويتصـــدق ، وهـــو مقـــرئ معروف في المنطقة ، يُستأجر في المآتم ، ولو عرفت الإذاعة ما في صوته من شجن ، لأسرعت للتعاقد معه ، لكن لم تكـــن لـــه رغبة في مد الشهرة إلى بر مصر كلها . وهو داعيـــة ، خطبـــه تجذب الأفراد في يوم الجمعة ، حينما يؤوم المصليـــن ، ويلقـــي خطبة الجمعة بصوته الجهوري وبقلبه المفتوح للجميع ، ومستقيم كحد السكين ، لم يتزوج إلا واحدة ، وتقبل حكـــم الله أن تكـــون خلفته بنات . غير أنه لم يكن ينتظر من البنات إلا كل خير . فقد رباهن على الفضيلة ، وبث في قلوبهن حب الخير ، ونهاهن عن ارتكاب المحرمات ، ولم يسمح لهن بخلع الحجاب إلا في البيت ، فكيف لم تثمر التربية ؟ .. كيف أنبت الزهر حصرمـــــاً ؟ .. إن ذلك مخالف لقوانين الحياة ؟ .. أين تقع الغلطة التي أرتكبها ؟ ..

أيكون ذلك راجعاً إلى تهوانه .. معهن ؟ .. وترك الحبل على الغارب كما يقال ثقة فيهن .

في يوم واحد أنكشف المستور ، ما كاد يدخل قسم الشرطة ، مطلوباً على وجه الاستعجال ، حتى داهمه الضابط بالخبر المفجع . ضُبطت ابنته تمارس الفحشاء . وعاد في ذلك اليوم مهدماً ولم يستطع أن يرفع عينيه في وجه امرأته الصالحة كيف أنجبت هذه البلورة تلك الساقطة ؟ .. هل كان لبنها فاسداً ؟ .. سرى في عروق الفتاة سماً أثر على قواها العقلية ففسدت . وما كاد يرتاح من أثر الصدمة حتى جاء شرطي آخر يطلبه في قسم ثان وهناك علم الحقيقة المرة . أن الفتاة الثانية كانت تعاقر المحرمات مع شباب فاسد . ثمرة يانعة كانت تمتص السم من مستنقع .. حاول أن يكفلها ، غير أن الضابط المختص أنبأه بأنها محجوزة على ذمة التحقيق . مثلما أنبأه الضابط الأول بشأن الفتاة الفاسدة . أما البنت الثالثة فقد كانت تهمتها أخف وطأة من الأوليين .ضُبطت تبيع أوراق البنكوت الأجنبية خارج المصارف المعتمدة لذلك

.وسُرحت بعد مصادرة النقود ، ولما كانت لا تزال قاصراً فقـــد تسلمها أبوها في القسم بشرط أن يحافظ عليها .

رقد في الفراش ، في ذلك اليوم ولم يقم . كان جسده لا يتحرك ، ولكن ذهنه مشغول بما ارتكبه من أخطاء لدرجة أن ينتـــج مـــن العالم فاسد . ما هي الأخطاء التي ارتكبها وأودت بهؤلاء البنات إلى التهلكة ؟ .. هل هي قلة المال ؟ .. لا .. فقد اجزل العطـــاء لهن . هل هو الطمع في أكثر مما لهن ؟ .. مؤكد ، فـــالأولى كانت تبيع نفسها من أجل المال . والثانية كانت تغيب عن الدنيـــا من أجل أن تنسى الواقع المر . والثالثة سقطت في براثن عصابة تتاجر في العملة الأجنبية . لعن الله المال في كل زمان ومكان . وحمد الله على أن جسده لا يتحرك ، لأنه لن يضطر إلى مقابلـــة أحد . رغم أن سره لم يُعلن ولم يتمكن صحفي أن يعرف الحقائق القاتلة ، ويبروزها في صحيفته .

أما الآن فماذا يفعل ؟ ..كيف يتمكن الآن من هداية البنات وقـــد تعذر هدايتهن من قبل ؟ ..كيف يدفعهن إلـــى التوبـــة ؟ .. هـــل يمنعهن بعد عودتهن إلى كنفه من الاستمرار في الجامعة ؟ .. هل

يقرن في بيته لا يبرحنه حتى الموت ؟ .. وكيــــف لمشلـــول أن يتحكم في نشيطات مثلهن ؟ ..حقاً إن بيت النجار قد تخلـــــع . إن بيت الواعظ قد خلا من السلوك الحسن . لما عادت البنت الأولى إلى البيت ، لم تحاول أن تقــــابل أباهـــا ، لزمـــت حجرتـــها .. ورفضت أن تقابل صديقاتها . كانت أمها قد انتظرتها أمام بــــاب السجن ، وأخذتها من يدها إلى بيت أبيها . وقد مــــلأت الدمـــوع عين الأم كأنها صفائح ماء كانت محتجــــزة .. وكتمــت البنــت دموعها ، حتى إذا انفردت بنفسها ، ســـــكبتها علــــى الفــــراش .

وسألتها أختها بائعة الدولار والإسترليني :

– هل هذه دموع الندم ؟ ..

قالت لها ، وصوتها يكاد يحتبس :

– وأي ندم ؟

قالت لها في أسف :

– لقد أجرمنا في حق الرجل الفاضل كلنا .

قالت الفتاة وهى تنفجر بكاء :

– نعم أجرمنا .

قالت الفتاة :

– لقد تبت إلى الله . واتضرع إلى المولى عز وجل أن يشفي أبي القعيد .

– وأنا تبت إلى الله في سجني . وسوف لن ارتكب حوباً مرة أخرى . يكفي أن شرفي ضاع . ولن استرده إلا بالتقوى .

أما البنت الثانية فقد ساءت حالتها في السجن بسبب الإدمان ، فاضطرت إدارة السجن أن تطلب من الأب أن يتصل بها لعلاج ابنته . لكن الأب لم يكن ليتحرك ، فذهبت الأم ووافقت على علاج الفتاة في إحدى المستشفيات الخاصة . وقالت لها الأم :

– أعرفت ما حدث لأبيك بسببكن ؟ ..

طأطأت البنت رأسها وقالت :

– غفر الله لنا .

ولما انتهت من عقوبتها . جاءت أمها إلى السجن مرة أخرى لاستلامها . ولما دخلت البيت ، أسرعت إلى أبيها المشلول ، وقبلت جبينه ، وقبلت يديه . وقالت :

– يا أبي إنني أجرمت في حقك فأغفر لي .

قال والكلمات تتعثر عل لسانه :

- إن الله غفور رحيم .

ذاكرة حارس خاص

لعل المطاردين دكوا السيارة ، فأنقلبت أو اصطدمت . نعـم أنـا أتذكر مطاردتهم ، واحتكاكهم بالسيارة ، ومحاولتهم النيل منها . لم تكـن مداعبـة سـخيفة . لا . كـانوا يتعمـدون الاصطـدام بقـوة بالسـيارة . لا أدري بعـد دخولنـا النفـق . لا أذكـر شـيئا .ومـن أحضرني إلى فراشي . وأين كنت ؟ .. ومالي أحس كـأني سـاقط في بئر ليس له قرار . كنت أجلس استمع إلـى المذيـاع ، والرجـل يلهو مع المرأة داخل الملهى . كانا لابد يأكلان طعاماً فاخرا . وأنا قـاعد فـي السـيارة أنتظـر . لا أحلـم بشـئ . مـاذا يحلـم حـارس خاص . لقد اشتريت كل شئ لبيتي وعائلتي . لم يكن علـي إلا أن أحرس وأتلقى المقابل وأباشر مسئولياتي نحو أسرتي .. كنت أفكر في رواية رأيتها في التلفاز وكيف أن المرأة تركت بيت زوجها وطالبته بالطلاق ورفض الزوج في البداية ثـم رضـخ . ولـم يكـن هنـاك حبيـب معيـن تجـري وراءه . إنمـا هـي حالـة مـن الكراهيـة سقطت في بحرها . لكنها بعد الطلاق أقامت علاقات كثيرة . هـل كانت تنسـى حبها لرجلها الأول . حبهـا الأول . أم كـانت تتسـلى لتملأ وقت فراغها . لا أذكر نهايـة الروايـة .. كيـف فقـدت تذكـر الخاتمـة ؟ .. أيـن غـابت مـن ذهنـي ؟ .. أصـابني الملـل مـن الانتظـار ، لكـن الرجـل والمـرأة خرجـا . وتـأهب السـائق لقيـادة السيارة . أنا جالس بجانبه . وهما في الخلـف يتضاحكـان . كـانت

السعادة تفيض من عينيهما . كانا يحلقان في سماء من الحبور غير المتناهي . حسدتهما على هذا السرور . إن الرجل يلعب بالملايين . والمرأة لا تختلف عنه . جمعهما الحب وطاردتهما الشهرة .

كانت الأنوار حولنا تتلألأ . كان المصورون يطاردون الرجل والمرأة . ووميض آلات التصوير يذهب ويجيء . تكاثروا على السيارة كأنهم نمل وجد كوزاً من الأذرة فرغب في نقله إلى مخازنه على الفور فتزاحم عليه لتحريكه ليكون ذخيرة له في الشتاء . كان الصيف حارا والغضب حاراً هو الآخر . حتى أن الرجل صرخ : كفي ..كفي . والمرأة كانت تغتصب ابتسامة تزيف بها غضبها . جميلة هي تستأهل الملاحقة . عينان زرقاوان واسعتان نجلاوان . وبشرة بيضاء ناعمة صافية . وإهاب املس يضج حيوية وبهاء ووردية محببة . كنت أريد أن أتحرك لأني الحارس الخاص . غير أن الرجل نهاني . وقال للسائق :

– هيا بنا .. ثم قفلت أبواب السيارة بإحكام .

******

نهض من فراشه . يبدو أنه تحول إلي حطام . كما لو أنه دخل آلة كبيرة لتفتيت العظام . تحامل كثيراً على نفسه . وانتصب . غير أنه شعر أن قدميه لا تتحملان جسده . تحرك ببطء كأنه شبح تعدى الثمانين يزحف . رمق المرآة الساطعة وقد تسلل شعاع من ضوء الصبح غطى صفحتها . بهت . وجد في المرآة شخصا لا

يعرفه . أبيض الشعر . وخط الشيب حاجبيه . فكه مصاب كأنه طحن وأعاده الطحان من جديد إلى حالته لكنه فشل . أين هو ؟ .. ومن هذا الرجل ؟.. إن المرآة لا تعكس إلا صورة من يقف أمامها .. أيكون بين يوم وليلة تحول إلى هذا الشبح العجوز المشوه ؟ .. أم أنه فقد الذاكرة دهراً وعادت إليه وهو يدنو من حافة القبر ؟ .. إن الأمس البعيد هو الماثل في ذاكرته . لا شئ بعده .

لم يقو على الصمود أمام المرآة . عذبه وآلمه أن يقف أمام رجل لا يعرفه . كيف تحول إلى هذا المسخ الغريب ؟ .. أيكون قد حدث له حادث أشعل الشيب في رأسه . وشوه الوجه بهذه الدرجة ؟ ..

لم استطع أن أقف طويلاً امام المرآة لأرى الوجه المشوه . استنكرت أن يكون ذلك وجهي . تحسسته ببطء . أدركت فعلا أن هناك ألتواء في الفك السفلي . هل حدث حادث في المطاردة ؟ ..

تذكرت تلك السيارة الكبيرة التي كانت تطاردنا .. وتلك السيارات الصغيرة التي كان تتبعنا . إنها سيارات المصورين . كانت تدنو منا وتبتعد ووميض آلات التصوير لا ينفك يصرخ .. كان الغضب قد ملأني . وملأ السائق هو الآخر فأسرع حتى يسبقهم . كان يعرف إلى أين يتجه .

داخل النفق كانت السيارة الكبيرة تحتك بنا . إنها أشبه بالبلدوزر . قالت المرأة : أيريدون قتلنا ؟ .. أجاب الرجل : وماذا فعلنا لهم ؟ ..

انقطع تيار الفكر لدي الرجل . لم يعد يقوى على التذكر .عاد إلى فراشه ببطء شديد . نام .

*****

استيقظ الحارس الخاص ، والحجرة يملؤها أشخاص لا يعرفهم . عرف أن امامه وكيلا للنائب العام . ساله :

– أنت حارس خاص .. أليس كذلك ؟ ..

استجمع قواه وأجاب :

– نعم ..

قال : وكنت مع الوجيه (.... .....) وخطيبته (.... ....) يوم الحادث ؟ ..

– أي حادث ؟ ..

روي له وكيل النائب العام أنه تعرض لحادث في الطريق داخل نفق . وأن الوجيه وخطيبته المشهورة قد توفيا من أثر اصطدام السيارة بالنفق . وأن سائق السيارة لحق بهما . فماذا يتذكر عن ذلك الحادث وكيف تم ؟ ..

نظر إلى الرجل باسهام وقال له باعياء :

– لا أذكر شيئاً .

قال وكيل النائب العام بحنان :

– حاول أن تتذكر .. نحن ننتظر أن تجيب منذ زمن بعيد .

أجهد فكره ثم قال :

– أحاول .. لكن لا أذكر شيئاً .

– ألا تذكر شيئاً قبل أن تركب السيارة أو وأنت راكب بجانب السائق ؟ ..

أسهم طويلاً ثم قال :

– كل شيء ضاع من ذهني .

قام وكيل النائب العام وغادر الحجرة وهو يكتم غضبه . يذكر نفسه إن الرجل مريض شارد لا يدري ولا يستطيع أن يتذكر . إنه مصاب فلم يغضب ؟ ..

رقد الحارس الخاص في فراشه وأجهد فكره طويلاً . كان بالأمس قد تذكر .. لكن ماذا تذكر ؟ .. إن كل فكرة مرت به شردت من ذهنه . تشتت الذهن مرة أخرى ، لم يعد يستجمع الأفكار . أهو يعاني من حالة فقدان ذاكرة جزئي . إنه لو أصابه ذلك الطارئ لسوف يقضى على مستقبله . من يقبل أن يوظف حارساً خاصاً يعاني من فقدان الذاكرة ؟ .. كيف نسى كل شيء ؟ .. إنه يتذكر أنه تذكر لكن ما هو الذي تذكره ؟ .. لا يدري .

العروس والعجوز

****

الأصوات تتلاحق في ذهنه ، وهو يقود سيارة زميله عبر صحراء لا متناهية . تكدست بالرمال والهضاب والجبال . ترى كم من الأعوام مطلوبة لتحويل اللون الأصفر إلى لون أخضر .

" توجه إلى مكة المكرمة .. تسلم من عميلنا سليم سيارتي . لقد شحنتها من القاهرة وتسلمها هو في ميناء جدة ونقلها إلى مكة " الصوت يأتي صافياً عبر الأثير ، يوجه التعليمات بدقة " أي خدمة ؟ " ماذا يقول غير ذلك .

" كنت قد وعدتك باللقاء يوم الأربعاء .. لكني سأتوجه في ذلك اليوم إلى مكة المكرمة .. لاستلامٍ سيارة صاحب العمل " يسمع صوت صاحبه يهتف " لنذهب معاً .. بسيارتي العجوز .. ولتعود أنت بسيارة صاحبك العروس . ونؤدي شعائر العمرة هناك . نحن وعائلتانا . "

وها هي السيارة العجوز تتوجه إلى الأراضي المقدسة ، ويؤدون الشعائر والنسك بإخبات وخشوع . عادل يحمل طفله بين يديه ، وزوجه بجواره حاملة طفلتها الرضيعة . وبالقرب منهما يسبح ويدعو ويتضرع نبيل وزوجه .. يؤديان الشعائر هما الآخران . وتفيض نفوسهم جميعاً بأحاسيس جميلة طالما تمتعوا

بها عند أداء كل عمرة . ولم يكن هناك زحام ، لذلك كان الإخبات رائعاً .

وجاء عادل بالسيارة تتهادى .. وتركها عند الفندق . وفي الصباح ظهر أن العروس استأنست المكان فرفضت بدلال أن تتحرك من البيت الجديد إلى بيتها القديم . ووصف العارفون ببواطن الأمور أن يغير البطارية فغيرها . استطاع أن يشتريها قبل أن تقفل المحلات أبوابها . وانطلقت العروس بمرح تسابق الريح . بينما سيارة نبيل القديمة تجري أمامها . لكن هناك فرقاً بين ركض العروس وجرى العجوز . الأولى ثابتة الأنفاس والثانية تتنفس بصعوبة .

وفي " ظلم " . فكر عادل أن يغير زيت السيارة الآلية . وبوغت أن الزيت بداخلها سائل متفحم لا لزوجة فيه . يبدو كأنه بقايا عصور قديمة . يحتاج إلى أشعة من نوع خاص للكشف عن عمره المديد . حاول أن يداعب العروس من جديد فلم تهتز . اكتشف أن الماء غاض منها وأصبحت كجمل فقد ما في معدته من ماء مدخر . وبينما يمدها بالماء الأخضر يأتي نبيل ويقول :

– سنذهب إلى مطعم قريب لنأكل .. يقع في الجهة الأخرى .. ألحق بنا .. سآخذ زوجك وطفلتها .

وقال على الفور :

– إني لاحق بكم .

وبعد محاولات دارت السيارة بعد أن تدللت كثيراً . وانتشر السخط في صدره . وسبب ألماً لم يعهده من قبل . وشعر بشقاء غريب لم يمر به . وانطلق يلحق بهم وطفله الصغير نائم نوماً عميقاً في حجر العروس اللدن . وحرارة الجو تعصر وجهه فتتساقط حبات العرق منه دون أن يدري . وانتشر الهواء البارد في السيارة بعد تحركها فمسح العرق بسرعة .

بعد أن شبعوا عادت من جديد العروس ترفض التحرك . وبحث عمن يصلحها أو يصالحها ، وكأنه يبحث عن جوهرة في الوحل . وأخيراً دلوه أصحاب المعرفة على ورشة إصلاح سيارات عند أطراف المدينة . قيل له إن صاحبها يفهم جيداً في إصلاح السيارات الأمريكية الآلية من ذلك الطراز . ولو أنه تركي يفهم قليلاً من اللغة العربية . غير أنه كهربائي ضليع .

رآه يرتدي فانلة وبنطلون جينز . وقد تركت يده المليئة بالشحم آثاراً سوداء تحت أذنيه وفي وجهه ، كأنما كان يلمسها من حين لآخر دون أن يدري باتساخ يديه . فتترك أصابعه بصماتها في تلك الأماكن . وتطوع أن ينتقل معهما إلى حيث ترقد السيارة جثة هامدة .. أو مغشياً عليها .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، والكهربائي يفتش عن موضع العطب . يفحص بدقة وبمثابرة . أخذ يفك ويربط في أجزاء منها . لكن العروس كانت متأبية . قررت ألا تعود إلى ديارها وتبقى مستقرة في ذلك المكان كأنه أعجبها .

وقال نبيل يائساً :
– في الرياض .. يمكن أن نبعث سيارة لتحملها .. ولنذهب جميعا بسيارتي .
ورد عادل ساخطاً :
– إذا لم ينجح فسوف يكون هذا هو الحل .
أخيراً قال الكهربائي :
– لابد من نقلها إلى الورشة .
– وكيف ننقلها .
– لا أعرف . كان يتكلم كلاما عربياً غير مفهوم تكسرت مقاطعه وتداخلت غير أنهم استطاعوا أن يفهموه بعد محاولات كثيرة للاستيضاح . تركي لا يعرف العربية . وعرب لا يعرفون التركية .. فكيف يتفاهمون ؟ .. وأعاد الكهربائي المحاولة من جديد بدفق بنزين في موضعه من داخلها . ثم طفق يعبث هنا وهناك فانطلق المحرك يدوي دويا هائلاً .
وقال بلغته المتكسرة :
– لنذهب إلى الورشة لفحصها .
تحركت العروس منطلقة ، لتلحق بها العجوز حاملة في جوفها الأسرتين . امرأة الصديق وولده وابنته . وامرأة صاحب السيارة . وفاضت مشاعر الراكبين بالسخط على التأخير بعد أن كانت تفيض بالخشوع والرضا . كانوا قد حسبوا أن يصلوا الرياض بعد العصر تقريبا . وهاهي الساعة تدنو من الخامسة ولا يزال

الكهربائي يطلب أن يتعمق في الفحص . هناك تمردت العروس مرة أخرى ، فما كان من الكهربائي إلا أن استلقى على الأرض مثلما استلقى من قبل . ودس يده في خزانة البنزين . وطلب من عادل أن يدير المحرك فتحرك .

وقال له :

– هيا .. إنها لن تقف منك حتى الرياض .

ساومه في الأجرة . طلب مائة ريال ، فتململ ودفع له ستين ريالاً فقبلها . تمت الصفقة دون مشاحنات . وعادل سعيد أن السيارة تحركت . ولا أهمية للنقود .

انطلقت السيارتان مرة أخرى . العروس الأمريكية تحمل أسرة عادل . والعجوز اليابانية تحمل نبيل وامرأته .

وانزل الليل عباءته السوداء . ومنع الضوء من أن يتسرب إلى الكون . وعاندته السيارات الراكضة ، فكانت تمزق العباءة من مكان لآخر . تمزقها وهي ذاهبة بنور أحمر . وتمزقها وهي آيبة بنور مبهر . حتى برزت الجبال التي تحيط بالرياض ، تلك التي أخترقها الإنسان وشق فيها نفقا مفتوحا ما يكاد يصعد حتى ينزل ، ويعود من جديد يصعد . تتعثر فيه أنفاس السيارات أو تتهدج . ويبهر الإنسان من فخامته وروعته .

انطلقت العروس الأمريكية تسابق الريح رغم أن الريح ساكنة . أما العجوز اليابانية فقد اكتشفت أنها لن تتمكن . فأطلقت شواظا شمه نبيل ، فأقترب من جهة اليمين حتى يتفادى أي

صدام . وحاول أن يحركها من جديد بعد توقف فلم تتحرك . أطلق البنزين صوته مزمجرا . ولا تهتم العجوز بالزمجرة . ولا تخشاها . وتقف ساكنة كأنها بلا قلب يخفق إشفاقا .

خرج الرجل يبحث عن منفذ . وترك كشاف العطل يعمل . يرقص في أربع جهات . أطفأ النور والمحرك وعم الظلام . كئيباً رهيباً . لا يكاد يثلمه ضوء باهر تطلقه سيارة عابرة حتى يعود من جديد .. أين عادل الآن ؟ .. لعله أفلت من الجبل العالي وعاد الآن إلى بيته غير شاعر أنني أصبت بكارثة . كنت أفكر في موقف ذلك الإنسان الذي تتعثر سيارته في الصحراء . لا ورشة تأخذ بيده ولا مغيث يساعده . وهاأنذا أقع في هذه الواقعة . لا يمكن أن أسير أنا وزوجي على الأقدام . فالمرتفع عال .. وإذا صعدنا فقد نلفظ أنفاسنا الأخيرة . وإذا لم استطع قيراطاً فلن تتمكن هي أربعة وعشرين قيراطا .

وهناك بالقرب منه في السيارة زوجه تكاد تبكي .. وتتضرع إلى الله أن ينقذهما من هذه المحنة . وتقرأ الآيات القرآنية الكريمة . وتأمل نبيل السيارات وهي تصعد المرتفع كأنها سلاحف تزحف . غير آبهة به أو بما أصابه .

وفجأة تتوقف سيارة يسأله سائقها :

– ماذا حدث ؟ ..

يستغرب كيف يقف السائق بهذه السهولة فوق هذا المرتفع . ويجيب قائلا : أصاب السيارة عطب لا أعرفه .

ينزل الرجل ويطلب منه أن يديرها ، فتطلق زمجرات دون أن تتحرك . ويطلب منه أن يفحصها شخصياً . ويخرج منها بعد قليل ليقول في يأس : لا فائدة . يبدو أن الكلتش فسد . ثم يلتفت إلى نبيل ويقول :

– هيا معي نصلكما إلى مكان سكنكما .

– ألن نضايقكم .

– لا .. لا مضايقة هناك .

– هذا فضل نشكركم عليه .

-لا شكر على واجب .

وتنفس نبيل الصعداء . حينما بدأت العروس اليابانية تتحرك بهدوء فوق المرتفع . وتتخطى عقبات الارتفاع بسهولة . لا تقارن بتلك العجوز الشمطاء بجانب الطريق ساكنة الحركة . يقول نبيل :

– كنت قد اقترحت أن نشحن سيارة أمريكية تعطلت بنا في ظلم . غير أنها تحركت أخيراً بعد أن فحصها كهربائي . ووقعنا نحن في المطب ، فسوف تأتي شاحنة لتحمل سيارتنا .

– وماذا كان العطب في تلك السيارة ؟

– كان البنزين لا يصل إلى الماكينة .

– هذا أمر سهل . هناك زر في خزانة البنزين أسفل السيارة تضغطه ينتقل البنزين إلى المحرك ويطرد كل الشوائب ويعالج العطب بسرعة .

– يا خبراً . هذا فعلاً ما فعله الكهربائي في خاتمة إصلاحها . ولو انه استغرق ساعات في محاولة الكشف عن الخلل .

– كان يريد أن يظهر أمامكم بأنه يبذل مجهودا حتى يكافئ على صنيعه . ما الفائدة لو ضغط على الزر وتم تنقية البنزين من الشوائب وتحركت السيارة . ستقولون وقتها إنه لم يفعل شيئاً ، فماذا تعطيه ؟

خذ ذهبك وأرحل

****

في حجرتها المظلمة ، جلست منكمشة في فراشها . هاربة من اشمئزاز الأهل وتعليقاتهم . مشكلتها لا حل لها ولن تنتهي . تكره خطيبها غير أنه مصر على الارتباط بها ، وأهلها معه يظنون أن هناك بذور اتفاق ، وأن البذور يمكن أن تنبت زواجاً سعيداً .. رغم أن التربة مشبعة بأملاح البغضاء .

أفقدها برود ذلك الخطيب توازنها كأنما سحب من صدرها قلبها المرتجف . ووضع بدلاً منه الكآبة لتحتل مكانه . أصبحت تمد الجسد كله بأدرانها . اضطربت وقلقت على مصير حياتها ، وذبلت حتى تفضفضت الثياب على جسدها " ماذا أفعل في هذه النكبة التي حلت بي ؟ .. نكبة تلازمني دون أجل انتهاء . تبدو ظلاً ثقيلاً جاثماً على عيني يحجب الرؤية عنهما . متى يأتي النور فيبدد هذا الظلام أو يخفف منه ؟ .. "

مذ بدأت تكشف عن نقائص خطيبها المزعوم ، وتعلن أنها ترفضه ، تراه عنكبوتاً أمسك بفريسته ، لا يطلق سراحها من شباكه ، رغم أن لحمها مر . والغريب أن تقف كل عائلتها ضدها وتناصره . " يخافون عليك من العنوسة ! .. كأنما كانوا ينتظرون هذا اللبلاب القاتل يلتف حوالي . يروّن أرضه بالماء القراح حتى يزداد نمواً والتفافاً . "

تقول له مراراً : لا أريدك . ولا أريد أن أقترن بك . خذ ذهبك وأرحل . يقول لها على الفور : أنت جوهرة حياتي التي عثرت عليها . لكل إنسان جوهرتان يبصر بهما . وأنا وحدي لي ثلاث جواهر . هل يمكن أن يستغني الإنسان عن واحدة من عيونه ؟ ! .. "

تستغرب أنه يكتب الشعر وليس لديه إحساس . يقول كلاماً جذلاً وقلبه بارد . " الشاعر رجل رقيق إذا ما أكتشف أن ناساً تلفظه فهو يتوارى عنهم ، ولكنه يصطنع الشعر . إنه مثل الغراء إذا لصق فمن الصعب أن يُنتزع . والعجيب أنه غراء صاف لا شوائب فيه يمكن لو كان فيه شوائب أن يقال إنه سوف يسقط أو يتساقط يوماً لكنه ثابت لا يتزحزح . "

في البداية بُهرت به . ويبدو أنه عرف من أهلها أنها تهوى الشعر وتكتبه ، فكان لا يفتأ يقرضه أمامها . وأكتشف أنها تهوى الموسيقى والغناء ، فصار يحدثها فيهما كأنه بحر متخصص فيهما . ولا يهدأ عن الإلحاح حتى يسمع صوتها ويطربه بحرارة .

يوم أُعلنت خطبتها ، ذهبت إلى عملها لتخطر كل زميلاتها بها كأنما عثرت على الإنسان الذي يتمناه قلبها . وعرضت عليهن ما اشتراه من ذهب .

سألها أحد زملائها بعفوية وهو يتأمل شبابها :

- كم سنه ؟ ..

قالت : ثلاثون .
ثم شعرت أن عينيها تفشي كذبها فقالت :
– الحقيقة .. الحقيقة :.. خمس وثلاثون .
وعلق قائلاً : أليس كبيراً عليك ؟ ..
ولم تجب فعاد يسألها :
– وماذا يعمل ؟ ..
قالت وهى تحاول أن تكون صادقة هذه المرة :
– ضابط .. ملازم أول .. وسوف يرقى إلى نقيب عما قريب .
اندهش الزميل وهو يتساءل :
– هل هذا معقول ؟ ملازم أول في الخامسة والثلاثين ! ..
أجابت بسرعة :
– كان صادقاً معي فأخبرني أنه تأخر في الترقية نتيجة أنه أودع أحد المتهمين الحبس دون تحقيق . ودون إذن النيابة .
قال ولا يزال الاستغراب في عينيه شاخصاً :
– أيضاً لا يعقل ذلك . لابد أنه كان أمين شرطة وتمكن أن يحصل على ليسانس الحقوق بعد مجهود ورُقي إلى رتبة ضابط .
قالت وقد عقدت الدهشة لسانها :
– لا .. لا أعرف .
اضطربت وزميلها يقول لها :

– الحقيقة يا آنسة أنا أخشى عليك من هذا الرجل . قد يؤذيك فيما بعد . إذا كانت هذه تصرفاته مع الغرباء فلابد أن تصيبك شظايا منها .

دافعت عنه بلا سبب قائلة :

– كان ذلك في الماضي .. ولكنه أصبح الآن عاقلاً .

وبث حديث زميلها الشك والاضطراب في حناياها . وجاء الخطيب في المساء لزيارتها . زيارات واجبة مقدسة يكررها دون ملل حتى – على حد قوله – يتآلفان . جاء خالي الوفاض لا يحمل معه هدية ولو لم تكن نفيسة كما هي عادته . واستآت غير أنها ابتلعت آلامها . حاورته في الماضي فأعترف بعد لأي بما ألمح به زميلها . وأدركت من حديثه أنه قادر على الكذب والتلفيق ولا يخشاهما . وتكونت قرحة في إحساسها بدأت تفرز صديداً كثيفاً في عواطفها ، غير أنها لم تشعر بها .

عرض عليها يوماً أن يخرجا معاً على أن يصحبهما أحد أخويها . واقترحت أن يزوروا إحدى زميلاتها في العمل . تريد أن تتباهى به بينهن . تحب أن يروه ويحكموا عليه . وكانت لا تزال مبهورة بشخصيته الطاغية ، متكلم لا يتلعثم ، مستمع لا يمل ، رقيق رقة متناهية . وفي الطريق تعطلت سيارته الخاصة ، فركنها عند رصيف ، ولم يعرض أن يركبوا سيارة أجرة لاستكمال المشوار ، إنما بادرهما بركوب السيارة العامة . ولم يعبأ بما تسببه من آلام بسبب الزحام . وزهقت أنفاسهم ساعة

وتعبت نفوسهم زمناً . ولم تعترض خجلت من أن تعترض غير أن صورته صارخة الألوان بدأت ألوانها تبهت . وأستآت ألا يتزحزح قليلاً عن باب الدخول في دار زميلتها . تغلبت عليه وظيفته وأملت عليه أن يتفحص المكان كأنما يفتش عن معالم جريمة محبكة . اعترضت . ولم يتمكن من أن يضبط أعصابه وكأنما نكأت جرحاً فقال لها صارخاً : أنا حر . وشعرت بآلام القرحة في إحساسها وبثورها تتسع والصديد يتراكم . وحينما دخلوا إلى حجرة الاستقبال تصدر مكاناً يكشف البيت من الداخل ويرى منه من يذهب ومن يجئ . اعترضت على مكان جلوسه وطلبت منه أن ينهض ويجلس في مكان منزو لا يجرح أصحاب الدار . قال لها : أنا حر . أجلس أينما شئت . وبقى قابعاً في مكانه كطفل عنيد . تراقب عيناه المكان بوضوح .

وتوالت الأحداث تكشف عن إنسان بخيل . غريب الأطوار . بارد الأعصاب لدرجة الاستفزاز . أو ثائر لدرجة الهدم . عنيد . متسلط . " ماذا أقول لهم ؟ .. كل الصفات الرديئة فيه . "

حينما بهتت الصورة التي شكلتها عنه ظهرت صورة مخيفة جديدة أفزعتها وخافت على مستقبلها معه . ورأت عنكبوتاً متخفياً في صورة إنسان . يخفي أرجله الأخطبوطية حتى لا تظهر . وفمه الماص يسدل عليه شارب كثيف كأنه ستارة سوداء . وعيناه الجاحظتان تهربان تحت الجفنين عمداً .

ولما تأكدت من مشاعرها قالت لأمها على الفور :

- أنا لا أريد هذه الزيجة .
- وما السبب ؟
- تصرفاته لم أعد أطيقها .
رفضت الأم أقوالها وقالت :
- هذا زوجك الموعود .. ولن تجدي خيراً منه .
- يا أمي ليس الزواج بالإكراه . أنا لا أرتاح إليه الآن فكيف سأرتاح معه العمر كله ؟ ..
- يا ابنتي أنت بلغت السادسة والعشرين وسوف تصبحين عانساً.
- لا يهمني . ولكني لا أستطيع أن أعيش حياة كئيبة وسبب دخولي فيها أنكم تخشون عليّ من العنوسة .
قالت الأم : لن يتيسر لك زوج مثله .
- الحمد لله أنني في بيت أبي .. وأعمل ولن احتاج لأحد .
أصرت الأم قائلة :
- البنت مصيرها الزواج . وأنا أؤكد لك أنه خير زوج .
امتنعت أن تقول لها : " كيف يكون خير زوج وأنا أرفضه ؟!.. "
كانت قد أدركت أن كلامها صار لغواً في نظر أمها ، فامتنعت عن الكلام ، وغادرت المكان لتنفرد بنفسها في حجرتها حيث ابتلعتها الوحدة . لعل في جوفها السلوى المؤكدة .
انزوت في فراشها ولا زالت تحتفظ بصورة أمها وعيناها تبرقان بشعاع من الإصرار ورفض طلبها . وجاء أخوتها السبعة

يعلنون تمسكهم بالعريس : " هل هم الذين سيتزوجون ؟ .. " بل أختها التي كانت تناصرها في اختيار رفيق حياتها ، وهي خارج البلاد ، سحرها بكلامه المعسول ، حينما قابلته ، فانضمت إلى صفوفهم .

وإزاء إراداتهم الصلبة التي لا تلين ، أفشت أسرار طباعه واحداً بعد الآخر . روت لهم حوادث بخله وهتك أستار البيوت وحب الظهور والغرام بالسيطرة . وذهلوا . غير أنه لما جاء وجلس معهم ساعة، سقاهم من خمر بيانه ، وفنه الذي لا يخيب ، ووعدهم أن يغير طباعه ، " كأن الطباع تتغير ! ! .. " بل جلس وتعشى معهم . لا يترك فرصة للعشاء إلا وينتهزها ! .. أما هي فقد أضربت عن رؤياه .

حاولت معه أن ينهي ارتباطهما رسمياً لكنها فشلت ، وأخيراً واجهته :

– أنا لا أطيقك .

يرد ببرود :

– لكني أطيقك . لقد بدلت حياتي . امتلأ عمري بك نوراً .

تقول بسرعة حتى لا تنسى ما رتبته من أفكار :

– كل ما أرغب فيه أن تتفضل وتأخذ شبكتك . وتقبل فسخ الخطوبة ، ولو أنها تفسخ من طرف واحد . (تعبير اقتبسته من أحد زملائها القانونيين في العمل) .

يقول كأنما الأمر سوء تفاهم بسيط :

- اعتبري هذه الشبكة هدية مني . وسآتيك بغيرها . وسوف أتركك أسبوعاً حتى تهدئي . وبعد أسبوع نعلن موعد الزفاف .

تنهض غاضبة وهي تقول :

- لن يكون هناك زفاف .

تتوقف لتسمع منه عبارات جديدة من نوعها . إنه يصر الآن على الزواج منها حتى ينتقم لكرامته المهدرة ويثأر للعذاب الذي يعيش فيه ولسوف يربيها بعد الزواج أحسن تربية . : " إذاً تريد أن تستعمل أساليب شرطة الماضي التليد معي ؟ ! .. " واعتصرتها المفاجأة . " هل تريدون إذاً أن أدخل الجحيم بقدمي ؟!.." حينما يجد أنه تورط في الإعلان عن نواياه الجديدة وكشف اتجاهاته الخبيثة ، يتراجع ويسدل ستاراً على غضبه ، بل يدفنه في بروده حتى الموت . ويلاحقها ويقول لها : أنا آسف .. أنا أعتذر . غير أنها تتركه وتدخل حجرتها ، وتقفل بابها بإحكام خشية أن يتسرب داخلها مع الهواء .

تأتي أمها وتكتشف مغادرتها حجرة الجلوس ، فتقول له :

- لا تغضب .. سوف تروق بعد أيام . وتصبح بإذن الله من نصيبك .

يكاد يبكي وهو يقول :

- احبها يا نينة . ولا يمكن أن افترق عنها . لقد أصبحت كل كياني .

تربت على كتفه وتقول :

– سوف تكون من نصيبك بإذن الله .

" أمي المستبدة لا تتراجع . وأبي ينضم إليها دون مناقشة . تجدني أرفضه وتستمر تملأ له كأس الأمل . وأخوتي يتعاملون معه كأن رأي صادروه دون مناقشة . ماذا أفعل هل أنتحر ؟ .. "

تباغتهم بقرار الانتحار . وتكاد تنفذه أمامه . وتلقي بنفسها من الشرفة . ويمسكون بها بقوة . ويطلبون منها أن تهدأ . ويرجون العنكبوت أن يبتعد أسبوعاً أو أسبوعين أو حتى شهر حتى تهدأ ثورتها . ويظهر ثانية – منتهى البرود – ولا يزال يأمل أن تقبله زوجاً ويتمنى أن يتم الزفاف في الحال . " أحبها يا عالم . لا يمكنني أن أستغني عنها " .. " أكرهه يا ناس سوف أفقد حياتي لو اقترنت به . "

تناقش نفسها : " هل أترك لهم البيت وأهرب ؟ .. ولكن إلى أين ؟ .. هل هذه أعمال بنت محترمة ؟ .. هل أنتحر حتى أخلص نفسي من هذا الكابوس ؟ .. إنني أمتنع عن ذلك لأني مؤمنة ولا يمكن أن ارتكب جرماً . ماذا أفعل يا ربي ؟ .. "

وهكذا لزمت حجرتها تستمرئ الوحدة والظلام . وهجرت أفراد أسرتها . كانت تتمنى أن تعارض أمها هذا الزواج . ولو عارضته لأنتهي كل شيء ففي يد أمها مفاتيح الأمور في هذا البيت . غير أن أمها تخشى عليها من العنوسة .

" ألا تصرفي النظر يا أمي عن هذه الفكرة . إن الله متى أراد فلن يقف أحد في طريق إرادته .

طرقت أمها الباب فصرخت :

– لا أريد أن اكلم أحداً .. اتركوني في حالي .

قالت بحنو :

– أنا أمك .. افتحي .

قالت بغضب :

اتركيني .. لن أفتح .

قالت الأم :

– انتهي كل شيء يا ابنتي . أخذ ذهبه ورحل . افتحي حتى أقبلك وأهنئك .

" أنت تهنئيني . "

حبة السم

****

قرية آمنة . يفوح الإيمان من رمالها وترابها . ناسها يمشون في مناكبها ، والورع يطل من عيونهم . بيوتهم تقوم لبناتها على مزيج من الطهارة والإخبات . غير أن في هذه الصورة الجميلة ركناً قبيحاً . عاصم هو النقطة السوداء في المكان الأبيض ، لذلك كانت نفوسهم تحس بأن أعمالها لم تكتمل . وأن حياتها قلق مستمر . مرجل يغلي بماء قراح وحبة من السم في قاعه . تقاوم الذوبان والماء يحاول أن يلفظها بفورانه من حين لآخر لكن تبقى في القاع . والماء إذا شربوا منه ماتوا . وعليهم أن يطهروه من السم حتى تستمر حياتهم بلا خوف . غير إن إمام القرية يقف عقبة كؤود في طريقهم ، يرفض أن يلفظ عاصم من القرية ، ويأمره أن يرحل عن الديار ، لذلك حينما ينتهون من الصلاة ، يتوجهون إلى الإمام ليفك لهم عقد المشكلة . عيونهم تتهم الإمام بالتراخي وشفاههم تقول :

– عاصم لا يصلي يا مولانا .

يخفض الإمام بصره . يغض الطرف عنهم كأنما لا يسمع أصواتهم الناكرة . وعادة ما يتدخل واحد منهم ليقول :

– لنضع عليه الحد .

يخلع ذلك الشخص ما عليه من حمول تثقل فكره ، وهو يطلق عبارته . ينتظر أن يجيب الإمام ، ويسمعه يقول في أناة :

– الدين ترغيب لا ترهيب . لا نريد أن نستعمل النصل في الدعوة للدين . نريد أن نستعمل القلب حتى نبلغ الأعماق .

يصرخ آخر مختنقا . الدم يملأ وجهه فيحيله كتلة حمراء :

– ولكن إلى متى نتركه في غيه . إما أن يصلي ويدخل زمرتنا . أو نضع عليه حد تارك الصلاة .

يتساءل الإمام باستغراب :

– وماذا ستجنون من وراء ذلك ؟ .. سيفقد الإسلام واحداً . أليس من الأوفق هدايته إلى سواء السبيل . اتركوا الأمر لي إني فاعل فيه شيئاً .

ينكشف معنى واحد في كل الوجوه المنتظرة . ويغيض أحمرارها ويتحول إلى صفرة . يأكل الغضب كل الدماء الحمراء . وتنشر الرغبة في القصاص طيفها الأصفر على الإهاب .

الفكرة تنبت في عقل الشيخ . يبذرها في صدره . ويرويها بأعصابه حتى تنبت . يمسك لحيته ويداعبها . ويقبض عليها حتى لا تتبعثر البذور منها . يزرعها مرة أخرى وتنبت ثمار مباركة . ويحصد بذورها من جديد . ويتأكد تماماً أنه سيجمع ثماراً يانعة . حان الآن وقت تطبيق الفكر على العمل .

يتوجه إلى عاصم ليضع البذور في أرضه . يجده يدخن في خميلة من خمائل الدار . وحواليه أطباق من العنب والخوخ والرمان . ينهض عاصم ليستقبل الشيخ . وخجل يرفرف بجناحيه يحاول أن يهرب من أعماقه ويتوارى . غير أن الخجل لا يتمكن .. جناحاه مهيضان .

يقول الشيخ :

– كيف الحال يا عاصم ؟ ..

يرد عاصم وقلبه يدق :

– زين والله زين .

ينطق الكلمات محاولاً ألا تتعثر . غير أنها تخرج مضطربة . كثيراً ما دعاه أن يؤدي الصلاة في المسجد ، بيد أن عاصم يضرب بالوعد دون حياء . وها هو الحياء يعقله ، والشيخ في داره .

يقول الشيخ وهو يداعب لحيته :

– لي عنك طلب ، وأخشى ألا تلبيه لي .

تذكره عيناه بوعود كثيرة خذله فيها . ويستغرب عاصم كلمات الشيخ " كيف تأتي إذا وأنا خاذلك دائماً لتطلب مني الجديد ؟ .. " وتفشى عيناه الاستغراب ، وبؤبؤاها يتراقصان حتى يكادا يسقطان إعياء . غير أنه يسدل جفنيه ، حتى لا يراه الإمام وهو مضطرب من الداخل . ويقول :

– أنا ألبي طلباتك كلها يا سيدنا من الآن فصاعداً .

لا تستنكر عينا الشيخ كلماته وهو يتساءل :

- وهل تقدر ؟ ..

يتحفز عاصم ويقول بسرعة :

- مر .. وأنا ألبي .

ينطق عاصم الكلمات ، وهو لا يدري هل سيلبي أم لن يلبي ؟ .. يجامل الشيخ إلى أقصى درجة : " أتق شره فبيده أن يطيح بك في دقائق " .

يقول الشيخ :

- أنت تعرف أن ابنتي تزوجت في قرية نائية . زوجتها رجلاً صالحاً .. وقد حملت .. وعلى وشك أن تضع . وأرغب في زيارتها ...

يقاطعه عاصم :

- هذا حقك .. ونعم الأب .

يستطرد الشيخ قائلاً :

- الواقع أنني سأغيب عندها بضعة أيام .. وكل ما أخشاه أن أترك المسجد بلا إمام .

يتأمله عاصم طويلاً ويقول :

- القرية مليئة بالمؤمنين القادرين على الإمامة .

يشير إليه ويقول :

- وأنت واحد منهم . لقد اخترتك يا عاصم لتؤوم الناس بدلاً مني أثناء غيابي فما رأيك ؟ ..

ولا يتركه يرد ويستمر قائلاً :

– لقد وقع اختياري عليك لأنك أهل لذلك . وكل ما أخشاه ألا تستجيب .

يملأ الزهو عاصم ، ولو أنه شعر أن الأرض تميد من تحته ، واستمر فاغراً فاه ، كأنما يسرب منه الدهشة التي فاضت مياهها في داخله . وبعد صمت طويل يقول :

– وأنا قبلت .

كان الخوف قد جثم على صدره لحظات ، غير أن سحاباته انقشعت وأشرق وجهه . " جاء الفرج من حيث لا أحتسب . الرجل ليس شريراً إذا . الرجل يمد لي يده لأعبر جسر الخير . كنت أريد أن اعبره منذ زمن .. لولا التحدي الذي دفعني أن أواجه أهل القرية ، تحدي شيطاني ، ها هو ينزاح . أستطيع الآن أن أزيح إرادة الشيطان من طريقي . دعوة الشيخ سوف تثبت خيمتي في أرض الإيمان . كم أنا مشتاق إلى هذه الأرض ! .. " .

***

حينما يعود الإمام من إجازته الطويلة ، يبادر بالذهاب إلى المسجد بين المغرب والعشاء . يدخل ، والمسجد يحيطه الظلام من كل جانب ، وفي داخله نور يسطع . وصوت رخيم يرتل بعض آيات الذكر الحكيم . ويفسر بعض الآيات البينات . يسري

الصوت في النفوس شجيا كسريان الخدر في الضلوع . والناس صامتون يسمعون تفسير الآيات بإخبات .

ويظهر الشيخ على المجتمعين . وينهض المفسر يحتضنه ويقول :

– حمداً على السلامة يا شيخنا .

ويسأل غير منتظر رد التحية :

– بم رزقت ابنتكم يا سيدنا ؟ ..

يقول الشيخ ، وهو يحتضنه متباهيا والناس تتجمع من حوله لتحيته :

– رزقت يا عاصم بولد .. سميناه عاصم .

اتـهام

* * * *

تنظر العينان السوداوان نظرات حائرة . لا تستشف العينان الخضراوان الحيرة . يلمس بيده ركبته كأنما يخفي تردده تحت لمسته . تتهمه العينان الخضراوان اتهامات لا يعرفها .

يرشف فنجان القهوة . وعيناه السوداوان تغطيان بأجفانهما قلقه . لم يكن جائزاً أن يقبل هذه المهمة . إنها كمهمة جندي لم يتدرب تدريباً كافياً . تقبض راحتا العذاب على عنقه . تفيض الراحتان سخونة . يتأذى من نفسه . وهو يجلس يفكر . يحاول أن يقفز حواجز التقارب بينه وبين مضيفه . يقول :

– الدنيا عجيبة !!..

ترشقه العينان الخضراوان بسهم ساخر .. يداعبه ، ولا يستقر في صدره . يسأله :

– لم ؟

ينسج من الخيوط سلماً ، عسى أن يتسلق ويبلغ المنتهى . يقول :

– مثلاً .. الرزق فيها لا تفسير له .

يقول صاحب العينين الخضراوين :

– كل بأمر الله . ومثل آخر .

يتأكد أنه يمسك بيديه درجات السلم ، يثب ، رغم أنه يصعد جبلاً وعراً . أنفاسه تتهدج ، وهو يقول :

– الزواج مثل آخر .. كالبطيخة المقفلة .. لا تعرف ما إذا كانت حمراء كأحمر الشفاه .. أم بيضاء كقطعة العجين .

تنتشي العينان الخضراوان . تجري النشوة بريقاً ساطعا :

" مهما ما يختزنه قلبي من شك نحوك ، فأنت دون ريب تروق لي . " يقول : الله .. الله .

يستطرد الزائر كأنما بلغ قمة الجبل اللعين :

– الحمراء .. قد تكون عسلاً شهياً .. أو ملحاً كالبحر الأجاج .

تغطية نظرات خضراء .. تقيسه .. ماذا تهدف ؟ .. أبسبب حلاوة حديثك تذوب فيك أم أنها تهوى كحل عينيك . امتصتها عيناك حتى تلاشت فيهما . وكرهت عيني الخضراوين .. كرهت الرياض .. ولون الزرع . لا تستهويها الحدائق .

ينتشل رأسه من ماء تأملاته الغاطس فيه ، ويردد :

– الله .. الله .

يفتش الزائر في أعماقه عن جسر قديم ، ينقله من المواضيع التافهة إلى الموضوع الحاسم . غير أنه يجد أن كل الجسور تآكلت .. تهاوت .. وتلوح له بادرة قريبة إلى اللحن المعزوف ، فيقول :

– كل شيء بعد ذلك .. قسمة ونصيب ..

تضرب العينان الخضراوان على طبلة السخرية : " هي حقاً تحبك ، ولكن لا أعرف ما إذا كنت تحبها . إنك لو سقط في شراك حبها ، فأنا أعدك صديقاً خائناً . " يسمعه يقول :

– العشرة بعد ذلك أيضاً .. قسمة ونصيب ..

يشعر الزائر أنه يخوض منطقة .. تحوطها الأسلاك الشائكة ، والألغام مدفونة تحتها . إن قاطع الأسلاك مقتول لا محالة . كيف سمح أن يحمل هذه المهمة على عاتقه .. أجن ؟ .. إنه يحملها ويكاد لا يتحرك من ثقلها . هذا صديقه .. تشابكت صداقتهما في نسيج لا يبلى . وهي زوجته لها معزة في قلبه وكلاهما ..

يقطع عليه الطريق ، وأفكاره تجري إليه . ويقول وعيناه الخضراوان تئنان :

– تصور .. زوجتي اليوم تركت .. المنزل .

يهمس المضيف إلى نفسه : " تراها ذهبت إليك .. اكتشفت حبها لك دفيناً في ضلوعها .. من علامات تافهة . قبلة طبعتها على صورتك . التصقت ولم تسقط . تركت آثار أحمر الشفاه . ظنت أن عيني غافلتان . آيات الوله رقصت أما عينيّ . تأتي لزيارتنا .. تعد لك شايا .. منذ قليل كنت أطلبه منها فلا تلبي . تدعي أنك ضيف . تعلق على عيوننا لك المجاملة . مائدة فاخرة لا أراها أبداً إلا حينما تأتي . ترتدي ثياباً طالما تمنيت أن أراها بها . تشاهدها أنت بها . أذلك أيضاً يدخل في باب المجاملة .. ولا يخرج منه .. لأجلي . "

ينتظر الزائر طويلاً حتى يسأل :

- ألا تعرف أين ذهبت ؟

يشعر كأنما السؤال أفلت منه .. يحمله بعيداً عن عين كان يتجه إليها في صحراء واسعة ليشرب منها .

رد على سؤاله قائلاً :

- لا أعرف .. ربما ذهبت إلى بيت أهلها .

ماذا يقول له ؟ .. أيقول إنها طرقت بابه طرقات منغمة . وحينما فتح شدته أهدابها ، وهي تغطي عينين ناعستين . أيقول إنها دخلت شقته ، ولم تكن قد دخلتها من قبل . وألقت بجسدها على المقعد العريض كأنما تنوي أن تنام . تأوهت كأنثى في ليلة زفافها . وتتضرع إليه أن يقف معها . تتوسل ألا يتركها في محنتها . يسألها ماذا يمكنه أن يفعل ؟ .. تجيب أنها لا تريد غير الطلاق . حقاً تفوح أنفاسها الملتهبة عطرا . تحرق وجهه حرقاً خفيفاً . غير أنه يتراجع . لم يتعود أن يخون . تشده إلى المهمة . يفكر فيها صعبة . يعدها أن يشقها . يندم . وقد رشق الوعد في صدرها . قذفه لسانه ، ولم يستطع أن يتراجع . عد تراجعه تخاذلاً وهو الآن حائر . تائه . يطير بالمهمة على مضض . تنتظره بالخبر الشافي . يجادلها طويلاً حتى يمزقه الغضب . تعارك الغضب حتى تخفت حدته . يستسلم في النهاية لقرارها . ويقتنع اقتناعا يبصر بعين واحدة . دموعها تبلل منديلها الوردي فتبدو الدموع دما صافيا .

هل يقول له إنها جاءت إليه .. تضرعت . كلفته أن يطلقها .
كيف أنزلق إلى تنفيذ هذا العرض ؟ .. ماذا يمكن أن يفسر صديقه موقفه ؟ .. سأل صديقه قائلاً :

– ولم تركت البيت ؟ ..

قال الصديق :

– – أسباب تافهة .. أحزان قديمة . تدفقت شلالات من الكراهية الدفينة .

– ولم هذه الكراهية ؟

– حدثتني عن سنين لا حصر لها من العذاب . وأنني قبرت أمومتها .

يتوقف عن الكلام ويسرح " لم إذاً قبلت كل هذه السنين أن تبقى جواري . هل حينما لاح حبيب جديد .. تتسلل هكذا تحت جنح ادعاء الآلام . لقد استسلمنا زمناً لواقعنا المر . أن لا أطفال .. ولا حتى ولي عهد .. ورضينا أن نتجرع ماء الحياة معاً . لا عيب فيها ولا عيب في .. لكننا لا نثمر " .

ينتبه على صوت صديقه يسأل :

– وعلام انتويت ؟

يسأل ممتعضاً :

– وماذا تظنني بفاعل ؟

أخذ يقيس اتجاهات حديثه . والفخاخ المنصوبة في طريقه .
بعد ما لمس نظرة الشك تطل : تنظر كالفرخ الصغير وهو يدلي

بمنقاره من عشه الرمادي . يلمحه بزغبه . يوقن أن منقاره حاد .
ويشعر أنه يرجع ألف خطوة إلى الوراء .

لم يجب على سؤاله : " لو قلت له أطلق سراحها ، فأنت تمتعت بها لحظات لا تحصى . ولم تهبها أمومتها . لظن أنني أريدها لنفسي . وأنا حقيقة لا أريدها . لا يمكنني أن اتزوج امرأة كانت لرجل قبلي . أريدها عذراء لا تمسها إلا يداي . وإذا قلت له صالحها فماذا أقول لها حينما ألقاها ؟ .. أأقول عجزت عن مساعدتك ؟ .. موقف شائك .. يشك ويجرح في نفس الوقت .

ضحكت العينان الخضراوان ، وقهقهت الشفتان الدقيقتان ، وهو يسأل :

– لم لم تتزوج حتى الآن ؟ ..

غاص في بركة آسنة . زكمت رائحة مائها أنفه . إنه يجره من جراح لا تلتئم إلى ماء مالح يكويها . أسرع يجيب :

– حتى لا أقف مثل هذه المواقف .

يرتاح للإجابة . يشعر بأنه متسلق على بحر من العطر .

ينتهي من رشف فنجان القهوة . لا يقوى أن يسأله أن يطلقها . لم يستطع أن يخرج من قلبه تصريحاً بما سوف يحدث . يصمم على أن يهرب منها . حينما يصافحه تكون العينان الخضراوان تتهمه أنه سوف يلقاها .. من وراء ظهره .ليتمتعا ببحر حرم من العوم فيه .

ما زلت أعاني .. مازلت أحيا

****

تحمد الله كثيراً على أنها تمشي . تتنقل . ولو أن حركتها بطيئة . هي سلحفاة وسط أرانب هم باقي البشر . وهي لا تختلف عنهم . تستيقظ وتشقى وتنام مثلهم .

في الصباح تفتح عيناً وتقفل أخرى . تطمئن أنها لا زالت تتنفس . وتتأكد تماماً من مرارة لسانها وثقل قدميها . تبذل مجهوداً كبيراً لتترك فراشها . تزحف وهي تبحث عن حذائها . تمشي الهوينى في شقتها . تغسل وجهها بسرعة . يداها الوحيدتان اللتان تملكان الحركة السريعة . تحاول ، وهي تمسح الماء عن وجهها المغضن ، أن تتأمل صورة شبابها المعلقة على الحائط يوم كانت أول حاملة للأثقال في مصر . عشقت الرياضة والرحلات والصيد يوماً حتى هجرتها وهي راغبة فيها . اليوم تحمل سلة الخضراوات بالكاد . بل تجرها بعجلة اشترتها لها ابنتها الكبيرة . أحضرتها معها وهي في زيارة خاطفة إلى القاهرة . تعيش الآن في مدينة في القارة البعيدة . زيارتها كانت برقاً لم يستمر .

تبدأ في إعداد رحلتها الأسبوعية إلى السوق . ، أشبه برحلة صياد وحوش بين أحراش أفريقيا . الصياد يصادف في طريقه إلى الأدغال الجبال الشاهقة والمنخفضات السحيقة . وهي تجد درجات السلم تلالاً ومصاطبه سهولاً . تنزل الدرجة بعد الأخرى

مستندة إلى سند السلم الحديدي . والصياد يستند إلى فرع شجر أو بروز في الجبل ، وهو يحاول أن يقفز من منحدر إلى آخر . تقاوم انحراف السلم مثلما يقاوم الصياد انحراف الجبل . وتكاد تسقط ويختل توازنها غير أنها تمسك بشدة القضبان الحديدية وتجمع كل ما في عضلات يدها من قوة حتى تنتصب . الصياد أيضاً يحاول ألا يتأرجح . وهي تزحف وتتدحرج .

تصرخ وقد تملكها السخط على عجزها :

– يا مرزوق .. تعال ساعدني .

مرزوق حارس العمارة عجوز ، غير أنه قوي البنية . هو يقترب من الستين أما هي فتدنو من الخامسة والسبعين . هيبة عمرها لا تحرك فيه النخوة . يتلقى نداءها بفتور . تصرخ من جديد :

– يا رجل .. ارحمني .

كأن أحد أذنيه سُدت . والأخرى امتلأت بالجبس . أحياناً يطاوعه قلبه وينقذها من عثرتها . وأحياناً يصادفها الرجل الرحيم جارها في الدور الثالث من العمارة . يضاحكها ويسألها :

– ألن تذهبي إلى أبنتك لتعيشي معها ؟ ..

لا تسمع كلماته . أذناها – هي الأخرى – أصبحتا نفقين خاويين .. تتردد في جنباتهما الأصوات زاعقة ، ولا تبلغ نهاية النفق . تضيع في أرجائه . تصافحه بحرارة بيد . واليد الأخرى

تتمسك بقطعة بارزة من الجبل قابضة على سلة الخضراوات الفارغة . تقول في رجاء :

– ماذا تقول ؟

يسألها ثانية ، وهو يزيد من موجات صوته :

– لم لا تذهبين إلى ابنتك بدلاً من هذا العذاب ؟ ..

تسمع وتجيب بسذاجة وأسى :

– لا راحة عندها . أولادها أشقياء . زوجها يأنف مني . راحتي في بيتي . أتقصد هذه التي تسكن في مصر الجديدة ؟

يقول نعم . وقد تسمع قصتها كثيراً . أن لها ابنتين . أحدهما في أمريكا . زارتها مرة أو مرتين . والأخرى في القاهرة في ضاحية بعيدة لا تزورها إلا لماماً . يجذبها وهو يقول :

– تعالي أساعدك .

يتحرك حارس العمارة في شهامة ، كأنما يستنكف أن شاباً يعاونها ، وهو يتفرج . تنقل قدمها المريضة بصعوبة . مسمار معدني يربط فواصلها . كانت قد سقطت يوماً عليها . ولم تنفع الجبائر . ولم يصلح الجبس . استطاع المسمار أن يربط الركبة بالساق . يقول الجار حينما يبلغون مدخل العمارة :

– إلى اللقاء .

تسأله :

– أريد أن أراك ؟

يتبادلان الحديث أحياناً على الرصيف أو في مدخل العمارة أو عند باب شقتها . يتركها وهو يلعن يوماً سوف تزحف فيه الشيخوخة إلى جسده . يفضل الموت على أن يطلب المساعدة . لكننا مضطرون يومئذ أن نعيش رغم أننا غير قادرين . هكذا يحدث نفسه وهو يسرع في مشيته كأنما يتمتع بالصحة والعافية يغسل بهما جسده قبل أن تهربا منه . العجوز تتأمله قليلاً كأنما تحسده على شبابه ثم تلتفت إلى حارس العمارة تعاتبه :

– أناديك يا مرزوق ولا تجيب .

يقول مرزوق كأنما يحرك أسطوانة في لسانه لا يمل من تكرارها :

– العتب على السمع .

تبدأ أثقالها في التحرك . في ذلك الوقت ينزل الصياد من الجبل الوعر ويرى السهل فسيحاً أمامه . يملأ صدره بالهواء البارد المنعش . أما هي فتبدأ في المعاناة من المنخفضات والمرتفعات في الطريق . تزكم رئتيها رائحة وقود السيارات . تحاذر وهي تسير . يوماً التوت قدمها تحتها بسبب حفرة سقطت فيها سهواً . ولا تزال تعاني من الآلام . تأتيها بأنيابها الكريهة في المساء ، حينما يداهمها النوم . ويتصارع معها حتى تنهض وتسلحه بحبة مهدئة وينتصر عليها انتصاراً مصنوعاً .

المسافة من البيت إلى السوق لا تتجاوز الخمسمائة متر . حقاً بالقرب من العمارة بائع خضراوات غير أنه يغالي في الثمن .

وهي ليست ثرية لتبعثر أموالها . إن ما تركه والدها من ريع عقارات يدعوها للتقتير . ابنتها الصغيرة تغدق عليها . ولا تتأخر ابنتها الكبيرة في إرسال المال إليها . لقد ربتهما وأحسنت تربيتهما . ولا تريد منهما شيئاً . المال في يدها يسيل لكنهما لا تبخلان أبداً . ومع ذلك فإن الأوضاع تدعوها للحرص . وتضغط على نفسها وتسافر هذه الرحلة الأسبوعية إلى السوق حتى تنتصر على جشع البائع .

تتحدث قليلاً أو كثيراً مع الأفراد وهي تسير . تتوكأ على عجلتها . أفراد تعرفت بهم يسكنون بالقرب منها . أو قد تستأثر بدكة حارس أو آخر من العمارات المجاورة . وتبادله الحديث . ودائماً تجد مادة للكلام . وحينما تصل السوق تبدأ في مساومة البائعين . وتطول مناقشاتها معهم حتى تحصل على حاجياتها بأبخس الأثمان . لعل الصياد يكون قد انتهى من اقتناص فرائسه . ويحاول أن يعود إلى ما وراء الجبل . والشمس قد بدأت تفرش شعاعها على الأرض . أما في حالتها فالشمس تكون قد نشرت شعاعها وبدأت تجمعه حينما تنوى أن تعود إلى دارها .

وتجهز لرحلة عذاب أخرى بين شقوق الطريق . وهي تجر وراءها أو أمامها العجلة حاملة أشيائها . وتكافح من جديد صعود السلم . ولا تجد مرزوق حارس العمارة جالساً . إنه يجلس كل يوم أمام باب العمارة كأبي الهول . لا ينطق لا يسمع لا يتحرك . وحينما يراها يختفي ، كأنها النهار وهو الليل . إذا ظهر ضوءه

اختفي السواد . ولا شك أنها تقاسي كثيراً إذا لم تجد أحداً يعاونها . وقد يصادفها من جديد جارها النشط عائداً من الخارج . وبدلاً من أن يركب المصعد إلى شقته ، يساعدها في صعود هرمها الكبير ويقول لها :

– هذه المرة الرابعة اذهب وأعود . وأنت الآن فقط تعودين !!

ويمسك عن الكلام كأنما يكتشف أنه يطعنها في عجزها . ويعود يتكلم كأنما يحاول أن يمسح آثار كلماته :

– كيف الحال الآن ؟ ..

تقول بسرعة ، وتبدو كأنها لم تسمع :

– ماذا ؟ ..

يردد سؤاله بصوت مرتفع فتجيب بضعف :

– الحمد لله .. ما زلت أعاني ومازلت أحيا .

يتناول منها المفتاح ، ويفتح باب شقتها . وحينما تقفله يحتويها صمت جامد لا يذوب . تلقي ما في يدها في أي مكان . وتتجه إلى فراشها بملابس الخروج وتنام . قد تغيب في إغفاءة ساعة أو ساعتين . وتستيقظ والشمس تجمع من الأفق بواقي شعاعها . تسترده من جديد لتعود توزعه .. في اليوم التالي .

تتحرك مرة أخرى لتعد طعام الأسبوع القادم حيث تحفظه في ثلاجتها . في هذه الحالة لا صعوبة في الأمر ، وهي جالسة تستطيع أن تعد كل شيء . مهارتها لا زالت تحيا ، أم أن يدها المرتعشة قتلتها دون أن تدري . إن ابنتها الصغيرة لا تتذوق

طعامها أبداً . حينما تزورها تتعلل ، وتتملل ، وتقلق ثم تنسحب . أريد يوماً يا ابنتي أن أعرف من بين قسمات وجهك أنني لا زلت أحتفظ بنكهة طبيخي أم أنني فقدتها . لا تساعديني أبداً . دائماً مشغولة معذورة . لا يهم ، فما دمت أنا استسيغ هذا الأكل ، فهذا يكفي .

وفي الليل تشاهد التلفزيون . في هذا الوقت يكون الصياد مسترخياً مثلها . يدخن غليونه ، وهي تقزقز اللب بأسنانها التي لم تبل . حواليه الأفريقيون يرقصون رقصات الحب . وهي حواليها الهاموش يتماوج مع الأضواء . يرقد الصياد على فراش معلق بين شجرتين . وهي ترقد على فراش قديم يكاد يستند إلى الأرض . الراقصون يتركون الصياد ينام ويذهبون . وقد تغيب عيناها قليلاً في سبات ولا تستطيع أن تستجمع قواها لتطفئ التلفزيون وبعد لأي تسدل عليه الستار . إنه أنيسها الوحيد . أكانت قد أخطأت يوماً حينما طالبت زوجها بالطلاق ؟ .. كان من الممكن أن يكون أنيساً – هو الآخر – في هذه الأوقات العصيبة . وتمصمص شفتيها وهي تقول : " لعنة الله عليه . لقد كاد يسلبني أموالي ليضيعها على الراقصات والميسر والخمر . الخير ما فعلت . الخير ما فعلت . جحيم وحدتي ولا جنة أنسه " .

الثلاثي الغريب

****

يتذكر ، وهو منطلق بسيارته عبر الطريق المظلمة ، أحجية جدته العجوز . الحمل والذئب والبرسيم . وصياد يريد أن ينقل واحداً بعد الآخر بقارب صغير .. على صفحة نهر عريض . وعليه أن يحمل إما الحمل أو البرسيم أو الذئب .. من جانب النهر إلى الجانب الآخر . إذا ترك الذئب مع الحمل وأخذ البرسيم . عاد ووجد الذئب ألتهم الحمل . وإذا ترك الحمل مع البرسيم وأبحر بالذئب ..رجع وقد عثر على الحمل وحده . وأختفي البرسيم أكله الحمل . فماذا يفعل الصياد المعذب ، وعليه أن يعود بالأحمال الثلاثة كاملة إلى البر الآخر .

هل يفترق ذلك عن قصة أخيه والثلاثي الغريب الذي يعيش معه : الناس والجنون والسمعة . إذا أرخى العنان لأخيه أنطلق بجنون يعتدي على الناس . وإذا بدا الجنون أمام الناس ، فسوف يضر ذلك بسمعة العائلة . عليه أن يسدل ستائر سميكة على جنون أخيه . ويخوض وسط الناس دون أن تتأثر سمعة العائلة ، ودون أن يعرف الناس هذا الجنون .

والسيارة تشق طريقها الآن ليشاهد موقفاً جديداً . أخوه أرتكب المحظور فعلاً . كيف يواجه ذلك ؟ .. أعصابه متوترة ، وقدماه

وأطرافه باردة . النبأ هزه ، وهو يحاول أن يتماسك . والوقت طويل ممل بين مركز الشرطة في البلد البعيد وداره في العاصمة . وعليه أن يقتل الوقت الكئيب بأي ثمن . لعله ينشغل عن هذا البرد القاتل الفتاك . ويعيد توازنه المنهار . وذلك بأن ينصرف عن مشاكله . يسترجع لغز الصياد والأحمال الثلاثة . حقاً .. حقاً .. وضع الصياد الحمل معه بالقارب . وتركه في الضفة الثانية وعاد فارغاً . والذئب لن يأكل البرسيم ، أسنانه تفتك باللحوم . وها هو الحمل بعيد عنه في الناحية الأخرى . وإذا وضع الصياد البرسيم في القارب ، وجدف حتى الشاطئ الآخر المواجه ، فسوف يترك البرسيم هناك ، ويعود إلى مكانه الأول ومعه الحمل . نعم . نعم .. هكذا كان الحل . وإذا وصل هناك يترك الحمل ويعود بالذئب . ثم يرجع إلى الحمل . وهكذا يعود دون أن يلتهم الذئب الحمل أو يأكل الحمل البرسيم .

" ولكن لماذا اختارت جدتي هذا الثلاثي معاً ؟ .. أفهم مثلاً أن يكون مع الصياد حمل برسيم ولكن كيف أستأنس الصياد الذئب ؟ ..لعل الذئب كان يخاف الصياد ، فلم يكن ليقدم على أكل الحمل معه . وبطبيعة الحال يستطيع الصياد أن يمنع الحمل من التهام البرسيم . ولكن هل هذا الوضع الغريب يمكن أن يقوم ؟ .. هل يصاحب الذئب الإنسان ؟ .. ولم لا . لقد عشنا هذا الوضع مع أخي . منعنا جنونه أن يحوله إلى معتد . باعدنا بينه وبين

الناس . ولم يلاحظوا جنون أخي . وحافظنا على سمعتنا بينهم . كان ذلك لفترة طويلة .. لكن هاهي الواقعة حدثت " .

ويتذكر أخاه ، يحاول أن ينسى مع الذكريات مأساته . إنه شعلة ذكاء متقد . يرمقه إخوانه بحسد . ولا يقدرون على منافسته في حفظ الدروس . يتحاشونه لأن قبضته قوية ، وجسده هائل عملاق . إذا عصر واحداً منهم لا يفلت إلا إذا شده زملاؤه من ذراعيه . وحينما ظهر العدوان في تصرفاته ، منعوه عن المدرسة . ولو أنه ظل مقيداً بها يتلقى تعليمه في البيت . ولا يستغرق شرح المدرس إلا ساعة .. تحت رقابة شديدة . حتى لا يشتبك معه . فترة الهدوء تنتهي غالباً بانتهاء مفعول الدواء المهدئ للأعصاب . وقد يرفض الدروس في بعض المواد ويحمدون الله على ذلك . وحينما ألتحق بالجامعة كان منتسباً لكلية الحقوق . كان الجميع يتساءلون أين هذا الطالب النابغة ولم لم يظهر ؟ .. وكيف يتحصل على هذه الدرجات الممتازة دون أن يحضر . ؟ ! .. كان يؤدي الامتحانات تحت رقابته ، هو أخوه الأكبر . وبمجرد أن ينتهي من أدائها يعود إلى البلد .. في القصر الكبير بعيدا عن عيون الناس . محروماً من التعامل مع أي فرد . إنه يحدثك بلباقة وتعجب بحديثه . بل تؤمن بأفكاره . وفجأة ينقلب . ينقض عليك ليضربك . كان في البداية غير عدواني ثم بدأ العدوان يفرخ أجيالاً في صدره ، حتى أصبح لا يطاق . ولم

ينفع العلاج ، ولكنه استمر في دراسته وحينما تخرج مـن الكليـة . قال لأخيه :

- أريد أن أعمل .

قال أخوه الأكبر بإصرار :

- لا عمل .. ولا خروج ..

هو قادر على مواجهته ، هو الصياد الذي أستأنس الذئب . نعـم كان لا يخاف أحداً غيره ، ويخضع دائماً لمشيئته . والحمد لله أن أعطـاني القـدرة علـى إخضاعـه . لـم يتمكـن واحـد مـن أخوتـي وأخواتي.واستطعت وحدي . وهكذا حملت مسئوليته ، ولا أستطيع الفـرار منهـا . وقـد سيطرت علـى جنـون أخـي دون أن يمسـني سوء . ويتذكر أخاه وهو يقول :

- إذاً أريد أن استكمل دراساتي العليا .

- وماذا ستفعل بهذه الدراسات يا عبقري الزمان ؟

- أسلي نفسي .

- وهل أنا أتحمل كل ذلك ؟ .. أليس لي بيت وأولاد ؟ .. أليس لي مشاكل ومشاغل ؟ .. أليس لي إلا أنت ؟ ..

ووجد آخر يمكن أن يـروض هـذا العبقـري المجنـون . بيومـي كاتب الضيعة . إن أخاه يأنس لـه ، لذلـك سـلمه القيـادة . واسـتمر أخـوه يسـتكمل دراسـاته حتـى بلـغ مرتبـة الدكتـوراه . وأصــر أن يسـجل رسـالته . كيـف سـيتفاهم مـع المشـرف علـى الرسـالة ؟ .. وكيف سيواجه الممتحنين ؟ .. وكيف سيقابل جماهير الطلبة ؟ ..

" كانت أيدينا على قلوبنا يوم كـان يمتحـن الامتحانـات الشـفوية في الدراسات العليا ، فكيف سيقابل المشرف على الرسالة وينـاقش معه أعماله ، والمناقشات ما أكثرها ! .. "

منعه وأصر على المنع . وانزوى أخوه وبيومي يؤنـس وحدتـه في القصر الكبير في الضيعة النائية . يحاول بيومي بشتى الطـرق منـع اتصالـه بـالآخرين . بـل منـع الخـدم مـن التعـامل معـه . هـو سجين حجرته . يقرأ ويكتب . ويتناول الدواء المهدئ للأعصاب . يشـرف عليـه الطبيـب مـن حيـن لآخـر كلمـا أشـتد عليـه الهيـاج . ويصر على تحضير رسالة الدكتوراه . ويتسلم من بيومي ما يريـد من مراجع . بل ينتهي من إعداد الجزء الأول من الرسالة وينتقـل إلى كتابة الجزء الثاني .

ينتفـض ، وهـو يقـود سيارته ، ويتذكـر رنيـن جـرس التليفـون المتواصل يصرخ صرخة ممتدة كأنما يستعجل محدثه . كان رنيناً موحشاً مثل هذه الطريق المظلمة .

وكيل نيابة مركز الشرطة يقول ، وهو يعرفه جيداً :

– احضر حالاً .. أخوك قتل بيومي ! ..

جدتي لم تكن حكيمة . ألم تفكر لحظة أن الذئب يمكن أن يبتلع الصياد وهما وحيدان في القـارب أو عنـد الشـاطئ الآخـر وينتهـي اللغز ولا تنقـل الأحمـال الثلاثـة . لقـد قتـل الذئـب الصيـاد أو قتـل الجنون بيومي وهو واحد من الناس . أما السمعة فقد كبلها الجنون بأصفاده " .

ودخل مركز الشرطة ، وشاهد أخاه وديعاً هادئا كأنما لم يرتكب جرماً ووكيل النيابة يكرر عليه السؤال :

– لماذا قتلت بيومي ؟ ..

يقول أخوه بهدوء ، والوداعة تجري في عينيه بمرح :

– ولماذا أقتل بيومي ؟ ..

يقول وكيل النيابة والرزانة تكاد تفلت منه :

– لقد رآك خدم القصر تطعنه بسكين في قلبه ، فلماذا طعنته ؟

– أنا لا اعرف شيئاً عن ذلك ؟

– ثبتت بصماتك على السكين .. وعلى جثة المجني عليه .

– هؤلاء الخدم يكرهونني ، ذلك لأني أعاملهم بشدة . ومن السهل أن يلفقوا لي الأدلة . وبصماتي تملأ الأماكن في القصر .

ينتحي أخوه الأكبر بوكيل النيابة ويقول له :

– إن أخي مريض عقلياً .. وهو غير مسئول عن تصرفاته .

ينظر إليه بغضب ويقول :

– أتريد أن توهمني بأن أخاك .. الحاصل على دبلومات في الدراسات العليا بكلية الحقوق .. ويجهز رسالة دكتوراه مريض عقلياً .. لا .. أسمح لي .. هذا هذر ! ..

يقول بإصرار :

– هناك طبيب معالج له .. ويمكن عرضه على الكشف الطبي .

يتأمل قليلاً ثم يسأل :

– ومادام مجنوناً .. أو مريض مرضاً عقلياً .. فلم لم تودعه مصحة ؟ ..

يرد بهدوء :

– كنا نعالجه بالمنزل . ولم نشأ إلحاقه بمصحة عقلية حفاظاً على سمعة العائلة .

يثور ويقول :

– لكن في هذه الحالة سوف يدخل مستشفى الأمراض العقلية . لو ثبت كلامك .

يحني رأسه ويقول :

– في هذه الحالة ما باليد حيلة .

يسأل وكيل النيابة باستفزاز :

– وما دمت تعرف أنه مريض بهذه الدرجة ، فكيف سلمته لبيومي لرعايته ؟

يقول دون تفكير :

– لأنه كان يرتاح لبيومي . لطبعه . لا يخالف رأيه . هما دائماً متفاهمان .

ينهض وكيل النيابة ويسأل :

– ولم قتله ؟ ..

يرد بسرعة :

– أنا لا أعرف .

ينتظر حتى يأمر وكيل النيابة بعرض أخيه على الكشف الطبي . ويستدعي طبيبه المعالج ليكون حكماً . هل يمكن أن يقرر الأطباء أن هذا الألمعي مجنون أو على الأقل لا يعي بما يقترف ؟ .. ينتابه القلق ، وتصارعه الأفكار .

هل أخطأ حينما ترك رعاية أخيه لبيومي ؟ .. وماذا كنت أفعل ؟ .. أأترك عائلتي .. أسرتي .. زوجتي وابنتي وأبقى بجانبه ؟ .. كان هادئاً طوال السنين الماضية . لم يظهر العدوان إلا في أوقات قليلة . وكان بيومي يروضه كالمدرب الماهر في حلبة السيرك . كيف فقد بيومي سيطرته عليه ؟ .. وما هو الحديث الذي دار بينهما وأدى إلى هذه النتيجة المؤسفة ؟ .. الغريب أنه لا يزال ينكر أنه أرتكب الجريمة " .

وترك مركز الشرطة قافلاً إلى القصر .

دخل حجرة أخيه . والنوم يداعب عينيه . والسبات يجثم بشدة على أعصابه . وشاهد فراش أخيه . وتأمل مكتبته ورأى إضبارة فحصها بعناية .ورأى مكتوباً عليها بخط اليد :

رسالة دكتوراه

موانع المسئولية الجنائية

وحكم النوايا الإجرامية المتعذر إثباتها

وقال يخاطب نفسه : " لقد نقل الذئب الصياد إلى العالم الآخر ، وها هو يعود ليأكل الحمل .. وجدتي نائمة في العسل " .

صراع مع الجوع

****

في طوكيو ، قادماً من كوريا الجنوبية ، نزل إلى المطار ليقضي أربع وعشرين ساعة على حساب شركة الخطوط الجوية ، ووجد في انتظاره مضيفاً قد كتب اسمه على لوحة . طفق يشير إلى القادمين . تقدم منه وصافحه . ولم يكن يعرف أن الوضع يقتضي انحناء الطرف الأول للطرف الثاني كما هي عادة اليابانيين . وأعطاه الرجل بطاقات يتمكن بها من العشاء والإفطار في اليوم التالي بالإضافة إلى المأوى في فندق ثم يسافر بعدها عائداً إلى بلاده . تقله الطائرة إلى القاهرة في تمام الساعة العاشرة صباحاً . وتأخذه سيارة الشركة الكبيرة إلى وسط المدينة عبر جسر طويل . تجري تحته عدة جسور أخرى . كلها مليئة بهذه الآلات التي أخترعها الإنسان ويقودها بإحكام .

في الفندق أعطاه المستقبل مفتاح الحجرة . وابتسامة عريضة ترتسم على عينيه المشروطتين . ويأخذ طريقه إلى حجرته عبر بهو طويل . فندق واسع ملئ بالصلات والطرقات . سموه اسماً إفرنجياً كأنما نقصت اللغة اليابانية من هذا الاسم " الرئيس " .

ولم يكن له حاجة إلى الطعام فقد أكتفى بالوجبة التي تناولها في الطائرة . ولم يكن الجو بارداً مثلما تركه في كوريا فلم تكن لديه رغبة في إدارة المكيف ، خلع ملابسه واستغرق في نوم عميق .

في المساء تجول في شوارع طوكيو ، وطفق يشتري لأولاده وزوجه ولنفسه ما يجده لازماً . والنقود التي يحملها في جيبه تتبدد أو تتبخر رغم أن الشمس كانت قد غربت . لا بأس أن أصرف كل ما في جيبي فلن أحتاج إلى نقود بعد الآن . العشاء والإفطار

مضمونـان والنـوم أكثر ضماناً فالمـأوى متوفـر والحمـد للـه . والذهاب إلى المطار بسيارة شـركة الخطـوط الجويـة مؤكـد . ولا حاجة لتخزين النقود في الجيوب وحرمان النفس من متع الشراء .

لا أهميـة أن يبقـى دولار واحـد فـي جيبـي ولا حتـى يـن فغـداً سوف ينتظرني أهلي في المطار المصري ، ويعودون بـي ، ولـن أكون في حاجة إلى جنيه لأستعطف سائق سيارة الأجرة أن يقلنـي إلى بيتي . وطفق يشترى .. آلة حاسـبة ، أقمشـة ، أدوات زينـة . ويشتري قوالب من الشيكولاته لأولاده .. وتحسس جيبـه فلم يجـد غير قليل من الينات لا تشتري شيئاً ذا بال .

حمـل كـل مـا اشـتراه ليضعـه فـي الفنـدق . حـان الآن موعـد الطعـام . فـي مطعم الفنـدق يسلم النـدل بطاقـة العشـاء . ويناولـه بدوره قائمة الطعام . طفق يتجول بنظره إلى القائمـة ويطلـب هـذه ويطلب تلك . تعطيه الشركة الحرية في أن يأكل ما يشـاء . وهـي تدرك جيداً أن معدة الإنسان لن تفرط في الطلبات . امتلأت معدته وارتوى بالماء القـراح . ونـهض ليذهـب إلـى حجرتـه . وقبـل أن يفكر في مشاهدة التلفاز متعدد القنوات ، قرر أن يستحم . هذه متع سـهلة لابـد أن يعبـي منهـا . وبينمـا يجفـف شـعره ، وهـو يشـاهد تمثيليـة مـن الخيـال العلمـي ، كـان النـوم يغلبـه ، يجب أن يتمتـع الإنسان بقدر ما يستطيع من هذه الساعات الباقية .

يـرن جـرس الهـاتف رنينـاً متصـلاً : مـن يكـون ؟ .. لا أحـد يعرفني في طوكيو .

– نعم .

– السيد / أحمد محمد محمود .

– نعم ..

– أنا من شركة الخطوط الجوية . أبلغك بأن هناك إضراباً من عمال الشركة ونأسف لأنك لن تستطيع أن تسافر على الرحلة المتجهة إلى كراتشي – القاهرة . فما رأيك لو غيرنا مسار الرحلة لتكون بكين – القاهرة ؟ ..

– لا مانع .

– أرجو المرور عليّ في الصباح الساعة التاسعة لتعديل مسار السفر وابلاغك بميعاد الإقلاع .

– وهو كذلك .

وفي الصباح قالت له موظفة الشركة بلغة إنجليزية سليمة :

– آسفة لقد ألغيت رحلة طوكيو بكين القاهرة بسبب امتداد إضراب العمال لهذا الخط أيضاً .

– وما العمل ؟

– هل يمكنك أن تقضي أسبوعاً في طوكيو .حتى يُنهي الإضراب وندبر لك طائرة العودة . إذ لا نعرف متى ينتهي الإضراب .

– وما المانع ما دامت الخطوط الجوية سوف تتكفل بإقامتي ؟

– لا .. في هذه الحالة سيكون البقاء في طوكيو على حسابك لن تضمن لك الشركة المأوى أو المأكل .

– لا يمكن لأني لا أملك يناً واحداً يمكن أن أعيش به .

– إذاً يمكن أن تمر عليّ بعد ساعة لتدبير طائرة تسافر عليها . الحقيقة أن تذكرتك مخفضة جداً . ولا يجوز أن تستعمل إلا في خطوطنا وإلا كنت قد حولتها إلى شركة أخرى .

– وهو كذلك .

في المطعم يتناول إفطاره بضعف . أفقدته المرأة شهية الأكل : ما العمل لو لم تدبر مكانا لي في الطائرة ؟ .. واضطررت للبقاء في طوكيو ولا مورد مالي لي ؟ .. أكان من اللازم أن أنفق كل ما معي على ذلك الذي اشتريته بالأمس ؟ .. وما أدراني أن ذلك سوف يحدث ؟ .. أكان لي قدرة على التنبؤ بإضراب عمال الطيران ؟ .. يبدو أنه ينتظرني صراع طويل مع الجوع والتشرد . الشركة ترفض أن تكفلني . وبعد ساعات ثلاث عليَ أن أسلم مفتاح الغرفة . وأين إذاً يمكن أن أضع حقائبي ؟ .. وأين سوف أنام الليالي القادمة لو فشلت في تدبير مكان ؟ .. يا للرحلة التعسة .. بدأت بداية حسنة مليئة بمظاهر الفخامة والروعة والحسن . وها هي تنتهي إلى مظاهر البؤس والفقر والجوع إذا كان من الممكن أن أنام على مقعد من هذه المقاعد الوثيرة المنتشرة في الفندق دون أن يحس بي أحد ، فماذا عن الطعام ؟ ..

أخذ القلق يستبد به . كانت مائدة الطعام مفتوحة يأخذ في طبقه ما يريد من على المائدة الكبيرة . وينتحي على مائدة صغيرة ليزدرد ما جمعه غير أنه قد ترك الطبق وقد امتلأ عن آخره وقليل منه دخل جوفه . كان جائعاً والنفس مصدودة تحول دون دخول شئ إلى المعدة .

يترك المكان ليذهب إلى عاملة الشركة مرة أخرى وتبادره قائلة : أنتظر .

بعد مكالمات هاتفية واتصالات لا تنقطع . تنادي عليه لتقول له : لقد دبرت لك مكاناً على طائرتنا التي ستقلع الساعة العاشرة مساء متجهة إلى أنكوراج بألأسكا ثم أمستردام فباريس فالقاهرة . فما رأيك ؟

– لا مانع .

أجاب باستكانة متقبلاً الأمـر الواقـع . رحلـة حـول العـالم تـأتي فجأة لكن عيبها أنها داخـل طـائرة وبعض مطـارات . أمعقـول يـا هذه أن ألف الكرة الأرضية لأصل إلى القاهرة ؟ ..

لم يجرؤ أن يسألها عن وجبة الغذاء . حاول أن يهـادن السـؤال في رأسه . وان يعقد معه فترة من الهدنة حتـى لا ينطلـق ويـترنح ويختفي من ذهنه ، غير أن السؤال كان قوياً أكثر من قوة الجـوع فـي معدتـه . وتلاشت عقبـة الخجـل فسـألها : مـاذا عـن وجبـة الغذاء ؟ .. رمقته باستغراب وقالت : تتحملها علـى حسـابك حتـى تدخل الطائرة . نحن مسئولون فقط عن العشاء والإفطار فـي هـذه الرحلة المجانية والمأوى .

تنزل عليه الكلمات صاعقة مؤلمة : ويتحسس جيبه فلا يجد إلا ما مقداره مائة وعشرون يناً . أمن الممكن أن أشتري بها وجبة .. في هذه المدينة ذات الأسعار المتقـدة ؟ .. أكـان مـن الإسـراف أن تتحمل الشركة الوجبة الناقصة حتى أستكمل سعادتي ؟ .. يبدو أن لا علاقة بين إمتاع المسافرين وشركة الطيران .

يهدأ قليلاً حينما يعلم أن في إمكانه أن يودع حقائبه في أمانـات الفندق – دون مقابل – حتى يركب سيارة الشركة التي ستقله إلـى المطـار . ويخـرج ليتمشـى فـي شـوارع طوكيـو الهادئـة بنفـس حزينة . لم تكن الساعة قد اقتربت من الواحـدة ظهـراً . ولـم يكـن الناس قد تركوا أعمالهم عائدين إلى بيوتهم أو ليندسوا في المطاعم المختلفة ليتناولوا وجبة سريعة ثم يعودوا بعدها إلـى الفـترة الثانيـة من أعمالهم . والجو مائل إلى البرودة كأنما أرسـلت كوريـا وجبـة عاجلة من برودتها القارسة لتنعش به جسـد الـدفء فـي طوكيـو ،

وكأنما البرد عجل بالجوع ، فقد بدأت معدته تعلن عن إفلاسها وتتلوى . ولم يكن طعام الإفطار كافياً حتى يمكن أن تسكت المعدة عن الإبلاغ بألم الجوع ، فقد أكله وشهيته إليه ضعيفة . وأخذ يتأمل لافتات الطعام في أحد المطاعم . وقد عرضها عند وجبة معينة : أرز باللحمة والخضراوات . وثمنه مائة وعشرون ينا .. أمعقول هذا .. هدية من السماء .

امتلأت معدته ليخرج وقد هدأ باله . سوف أبقى حتى المساء دون ما حاجة إلى طعام . إن الأرز يلكم المعدة ويجعلها تكف عن النباح . ويبدو أن معلوماته عن الأرز كانت قاصرة . فما كاد يتجول في طوكيو دون خوف . وطفق يمشي على غير هدى ويحس أنه قطع مسافات طويلة لكنها لم تكن بعيدة عن الفندق حتى سمع معدته تعاود الصراخ . لقد هضمت الأرز سريعاً . وعادت من جديد خاوية . والبرد يزيد الشعور بخوائها . والتعب ينهكها . فكر أن يأكل قوالب الشكولاته التي اشتراها لأولاده . غير أنه نهر نفسه : ما هذا ؟ .. ألا تتمكن من أن تصوم عن الأكل ست ساعات ؟ .. كيف إذاً أصوم رمضان ست عشرة ساعة في اليوم الواحد ؟ .. لينته الألم والصخب والصراخ .

شعر بسكينة لم يعهدها من قبل .

دوامة كل رحلة

****

في كل رحلة من رحلاته تصارعه نفسه بين الإنفاق والتقتير . يعيش في دوامة تبتلعه في جوفها وتلفظه عشرات المرات . يبدو حساساً إلى النقود بدرجة كبيرة . وكثيراً ما يستعمل الآلة الحاسبة ليعرف كم يساوي ما صرفه بالعملة الوطنية والعملة العالمية وعملة البلد الذي حل فيه .

في هذه الرحلة تنتقل نفسه من مناخ رتيب إلى أجواء جديدة سحرية .. ومفزعة في بعض الأحيان . هذا العالم الذي يدخله اليوم مختلف رغم أنه قادم من أواسط الشرق إلى أقاصيه . لم يجد تعقيدات في الخروج من المطار " سوف أقضي يوماً وليلتين فقط " هز مأمور الجمرك رأسه كأنما فهم . وكان جواز سفره خالياً من تأشيرة دخول هونج كونج .

استقل سيارة أجرة . وقال للسائق : " أريد فندقاً رخيصاً أرتاح فيه هذه الليلة .. " كانت أصابع المساء قد قبضت على كل خيوط الضوء ووارتها في جعبتها . بل كأنما كان هناك حظر تجول ، فأختفت السابلة من الشوارع . وأطفأت الحوانيت أنوارها . وبدا سحر الليل كأنه رعب مقيم . وطفق السائق يأخذه من شارع إلى آخر يدخل به نفقاً ليصعد جسراً . سلم نفسه لرحمة المولى عز وجل . وترك المقادير تفعل ما تشاء .

وقفت السيارة وجيوش الليل السوداء تحيطها من كل جانب . " أنتظر سوف أسأل لك عن حجرة تبيت فيها " . رد بضعف : " إني منتظر .. "

يتأمل الرصيف الآخر ليقرأ بالإنجليزية . محل سونا . ويشـاهد الأسعار : من يتحمل هذه الاسعار . لابد أن الأجـور عاليـة هنـا . ٣٦ دولارا . أهذا معقول ؟ .. " . ويأتي السائق وقد صافح البشـر وجهه ويحمل معه الحقائب إلى الدور العلـوي . يدخـل إلـى جنـاح الاستقبال . سكوت مطبق يثير العقـول ويحـرك أحاسـيس الخـوف والفزع . الفندق هادئ ينتشر الصمت في كـل ركـن مـن أركانـه . ويتقلص الضجيـج . قـد غطيـت الحوائـط بلـون قـاتم أشـبه بـاللون الأحمر أو العنـابي . يمقـت هـذا اللـون . يثـير فـي نفسـه الفـزع . ينظر إلى رجل الاستقبال : بكـم الحجـرة ؟ .. يقـول الرجـل علـى الفـور : " ٢٥ دولاراً " . يحـاول أن يسـاومه : أليـس عشـرون أفضل ؟ .. يقول الرجل بلغـة إنجليزيـة واضحـة وصـوت قـوي ، وعيناه المشروطتان تضيقان ضجراً من القادم فـي منتصـف الليـل يطرق الأبواب : ألا تخجل مما تقول . هذا فندق محـترم لا مكـان للمساومة فيه " . يمتص صدمة الكلمات المؤنبـة . ويقـول : " أيـن الحجرة ؟ .. "

أعطي سـائق التاكسـي عشـر دولارات دفعهـا دون أن يحـس . ومشى وراء المستقبل فـي النـزل . وحينمـا يدخـل الحجـرة ، يجـد اللون العنابي قد سبقه إلى عينيه . ودخل رئتيه ، وعبث بأحاسيسه فجعلها تتفجر كآبة . وكان سجاد الحجرة رخصاً . غير أنه يبعـث علـى الاشـمئزاز . لونـه قـاتم . لا جمـال فـي الحجـرة . اجتاحتـه مشاعر سوداء لم يعهدها من قبل .

حاول أن يبحث عن نافذة في الحجرة يتنفـس منهـا هـواء الليـل النقي . لم يجد . سجن ليس له نوافذ . أهذا شيء يدخل العقل ؟ .. وكيف يتنفس ؟ .. تتنفس يا بطل من أعتاب الباب .

رقد على الفراش قليلاً بملابسه حتى ينام لكن النوم ضاع من عينيه . الفراش وثير لكن النفس ترفضه . ولا يعرف لعلها أجرة المبيت الغالية يا حريص ؟ ..
وضع ثيابه وارتدي ثياب النوم . غير أن النوم كان مضطرباً . أغفى ساعة في الفراش ثم تقلب أخرى . وعاد إلى السبات مرة ثانية . والقلق يطارده ، ينهش صدره .
ينهض في الصباح وهو لا يدري كيف أبتلعه النوم . ينظر إلى ساعته التي سبق أن ضبطها في المطار على التوقيت المحلي .. ويعرف أنها السابعة صباحاً . لا بد أن أغادر هذا الفندق بأسرع ما يمكن . أنا اعرف أن بيوت الشباب تفتح أبوابها بأسعار معقولة . عشرة دولارات على الأقل . يجب أن أبحث عنها . خمسة وعشرون دولارا مبلغ كبير . ثم هذه الحجرة أشبه بمدفن مزين بفراش نظيف .
يغادر الفندق دون أن يلحظه أحد ويترك حقائبه في الحجرة ومفتاحها معه . بهذا أضمن عدم العبث بمحتويات الحقائب . المفتاح لا يزال في جيبي .ولن يطرق أحد بابي لأني نائم والبحث سيجري الآن عن بيوت الشباب .
سأل المارة عن هذه البيوت ، لكن المستعمرة الإنجليزية لا تتكلم الإنجليزية . كان يجب أن يتكلم اللغة الصينية .. من أجل يوم وليلتين سوف تقضيها في هونج كونج . ووجد ضالته في متجر للآثار والتحف . يعرف صاحبه اللغة . وصف له الطريق إلى فندق الشباب . لن أركب سيارة أجرة . لن أبعثر الدولارات في الهواء . المسألة ليست بعثرة ، إنما لأن هذا هو طبعك . الحرص الشديد . وما المانع أن أقتر قليلاً في الرحلات لأتفادى

وما المانع أن أمشي . الوقت لا يزال مبكراً . والسير على الأقدام موصوف للمرضى والأصحاء . ثم .. تسليم المفتاح في الثانية عشرة . ولا يزال هناك متسع من الوقت أن أتعاقد على الحجرة وأعود إلى الفندق . ولكن عليّ أن أحفظ الاتجاه . الفندق الكئيب على نفس الطريق إلى فندق الشباب ، فلن يحدث أن اتوه .

هناك يسأل عن حجرة خالية . يقول له المستقبل : انتظر ساعة . ويتسرب الوقت في ملل ويبادره الموظف بعد ساعة . نأسف لا توجد حجرات شاغرة كنا نتوقع أن يغادر نزيل لكنه جدد إقامته ليوم آخر . سأله : ألا يوجد فندق للشباب آخر . قال : " نعم هناك فندق الشباب الصيني . يوجد داخل المدينة . " وراح يصف الطريق إلى الفندق على ورقة .

يحمل أوصاف الطريق . ويتبع المسار بدقة للوصول إلى الفندق الموجود داخل السوق . يمر بحوانيت تحاول أن تستلفته غير أنه لا يعبأ بها . وشوارع تجري السيارات فيها فيفزع . وطرق تبطئ السيارات فيها فيمشي الهوينى . يدخل أسواقاً تبيع فاكهة وخضراوات ومأكولات لكن هدفه الوحيد هو الفندق . يسأل ذلك عن الطريق فلا يجبه والآخر يتفضل ويسهب في الشرح . وأخيراً بلغ الفندق . وعلى الفور سلمه موظف الاستقبال مفتاح حجرة .

يصعد إليها .. أخيراً سوف تهدأ نفسي .. يجدها واسعة يملؤها الهواء . بل في السقف مروحة مستعدة لأداء خدماتها . لكن الجو منعش وبارد . الأرض خالية من السجاد لكن البلاط نظيف . يستلقي على الفراش ويملأ صدره بالهواء .. عرف أن الحجرة تستأجر بعشر دولارات ، فأطمأن قلبه . سوف نوفر خمسة عشر

دولاراً . مبلغ لا بأس به . لعل رخص الحجرة هو السبب الذي جعلك ترضى عنها . أبداً . يكفي أن الهواء يدخلها مثيراً للانتعاش . فارق كبير بين هذه الحجرة والزنزانة الخالية من النوافذ .

تتدخل غريزة حب التوفير مرة أخرى في مساره . وتجعله يقرر أن يمشي حتى الفندق القديم . لا يزال في الزمن بقية ومر بأحد البنوك وهو في الطريق . عليك أن تغير دولاراتك بعملة البلد . يدخل المصرف . ويبرز ورقة فئة مائة دولار . ويطلب تحويلها إلى عملة البلد يعطيه الصراف ستمائة يدسها في جيبه . ويمشي يعيد حساباته . معنى ذلك أن صاحب الفندق القديم سوف يتقاضى مني مائة وخمسين .. ياله من مبلغ .

يصعد إلى الطابق العلوي من الفندق ليشاهد الرجل ذا الصوت الأجش يستقبله . يقول له على الفور : " سوف أحمل حقائبي أريد إيصال السداد لأدفع لك . . " . يندهش الرجل لتصرف العميل لكنه يستعد لتحرير الإيصال . ويحمل حقائبه من الحجرة الكئيبة ويكون الرجل قد أنتهي من توقيع الإيصال . ويبرز ما معه من نقود محلية ويسأل : كم تريد ؟ ..

– خمسة وعشرون دولارا كما قلت لك بالأمس . يدس كل النقود التي معه في يد الرجل ، فيلتقط منها ما يريد ، ويرد الباقي . يندهش إذ سحب مبلغاً غير متوقع ، يسأله :

– ألا تتعاملون بالإسترليني ؟ ..

– لا .. العملة اسمها الدولار .

– كنت أظنك ستحاسبني بالدولار الأمريكي .

لم يبال بعد ذلك وهو ينادي سيارة أجرة تقله إلى الفندق الجديد في وسط المدينة . فمهما قطع من مسافة فلن تكون الأجرة غالية . وما يكاد يستقر في حجرته . حتى يستخرج الآلة الحاسبة ليعيد حساباته . ويحول العملة المحلية إلى عملة عالمية ثم يحولها إلى عملة وطنية . ويقارن بين الأسعار .

فجأة كأنما أصيب بلطمة . تذكر ما دفعه من الدولارات الأمريكية لسائق التاكسي ليلة أمس . أمتعض تماماً فالرجل حصل على حقه أكثر من ست مرات . غشه .. دفع له أكثر مما يستحق .. استباح النقود بلا ضمير .

الشمس والأمطار

****

استغرقت الرحلة من القاهرة إلى سنغافورة وقتاً طويلاً . وكانت بانكوك مرفأ راحة خلال هذه الرحلة . تقلب في مقعده في الطائرة وهو يتناوم كالثعلب يترصد فريسة . لكن لم تكن هناك فريسة . اكتوى بالحرارة الشديدة في بانكوك وهو يعبر من الطائرة إلى داخل المطار . غير أن تكييف الهواء في الداخل لطف كثيراً من نار الاكتواء . هناك الشمس غاضبة دائماً ، لذلك تطلق سياطها دون رحمة . وفي بلاد أخرى تبدو رحيمة فتكتفي بالدفء . وتعود قاسية في نوع ثالث من البلاد فلا تؤثر في شئ . تترك الناس للصقيع .

تشاغله فكرة حتى يركب الطائرة : لن يتسنى للدول المتخلفة أن تتقدم إلا إذا أدخلت التكييف في بيوتها ومصانعها ومكاتبها . رد على نفسه قائلاً : أنت تهذي لقد أثر الحر على دماغك ، تبدو كالملكة التي استغربت أن يشكو الشعب من نقص الخبز فتساءلت ولم لا يأكل كعكاً ؟ ..

كان مطار بانكوك واسعاً فطفق يتمشى فيه جيئة وذهاباً حتى كل . ثم انطلقت الطائرة تحمله وآخرين إلى سنغافورة . ووزعت مضيفات الطائرة مشروبات مثلجة فامتصت اللظى الذي سكن في القلب ولم يبرحه . هربت النار المتقدة في الصدر لمجرد أن رشف رشفة من المشروب البارد . زال غضب الشمس في ثوان ، ذلك الذي رقد على أنفاسه .. ساعة أو أكثر .

بوغت بمطار سنغافورة الضيق والحرارة – من جديد – لا تطاق . ولم يجد أحداً ينتظره فقد كان اليوم يوم أحد . ولا يعمل

شخص في دائرة حكومية في ذلك الوقت . ولطمته الحرارة مرة أخرى على وجهه غير أن تكييف سيارة الأجرة قبل وجهه معتذراً . الشمس في الخارج تفور وتثور .. والتكييف في الداخل يلطف ويخفف .

قال للسائق :

– أريد فندقاً يطل على البحر .

يبدو أن السائق لم يفهم لغته الإنجليزية ، أجاب بالموافقة . وقاده إلى فندق يسمى بفندق البحارة . وأنزل الحقائب من السيارة وقبض الثمن . وأفلت كأنما يهرب منه . لم يبق دقائق حتى يتفاهم مع المسئولين في الفندق . وأنطلق . أعتذر المسئولون عن عدم استقباله . وقرروا أن الفندق خاص بالبحارة ولا يستقبل غيرهم . وجرجر حقيبته . وواجه البحر ثم أنحرف إلى الشارع العام . وصفوا له فندقاً آخر للشباب . لكن بعيد قليلاً عن فندق البحارة . وسخر قائلاً : أرجو ألا يرفضوا إقامتي فيه بدعوى أنني شيخ . خفف المسئول ما أصابه قائلاً : لا تخف ستنزل هناك على الرحب والسعة .

لا توجد سيارة أجرة في الطريق . والمسافة بين الفندقين غير بعيدة ، لكن طريقها يدخل في وسط المدينة . ولو شق طريق بين الفندقين لوصل أسرع مما يتصور . كان على جانبي الطريق دكاكين صغيرة تبيع التوابل . ينبعث منها شواظ الجو المتقد وفي نفس الوقت رائحة البهارات والفلفل والشطة القاتلة لا تستعمل هذه المحلات آلات التكييف . ورأى أصحابها مرهقين غارقين في العرق كسالى . ألا يؤكد ذلك وجهة نظره في التكييف ؟ .. معظم العاملين بها من الهنود الذين لا يؤمنون بالجو البارد مفعوله

كالسحر . لعلهم يخشون على التوابل من التلف . ويتركون الشمس تباركها بحرارتها كأنما ستحفظها لهم . ويعطس ، حينما تمسك رائحة البهارات أنفه وتعصره .

يلوح الفندق بعد نصف ساعة من المشي . يبرز كمنقذ برزٍ لرجل ضل الطريق في فيفاء ليس فيها ماء وفيها بركان يلفظ نارا متقدة .

كانت الساعة تدنو من الخامسة . وقد شعر أنه منهك بالفعل . وكادت الشمس تغرب .. وتأسف لانتهاء فترة غضبها . لكنها لا تنسى أن تترك ذكراها لليل يتلظى بها . حينما احتوته الحجرة . وأدارٍ مروحة السقف . أستشعر النعاس يزحف إلى عينيه . ونام نوماً عميقاً . أكثر من سبع عشرة ساعة مرت دون أن يلثم النوم جفنيه . وها هو الآن يأخذه في أحضانه .

كانت خطته أن ينام حتى الصباح ثم يتصل بالمسئولين في جهاز تنظيم الأسرة بسنغافورة . هؤلاء الذين دعوه ليطلع على مجريات الأمور فيه . جاء ليكتشف كيف أن دولة صغيرة في دور النمو استطاعت تخفيض نمو عدد سكانها بسرعة مذهلة . غير أن الفجر لم يكن قد طرق على باب الدنيا بعد . ووجد نفسه متيقظ الحواس والسبات فارق عينيه تماماً .. ماذا يفعل ؟ ..

خرج يتجول في الفندق . ولم يجد أحداً .. ووجد مطعم الفندق مغلقاً . الكل .. نائم . عاد إلى حجرته ورقد على الفراش . والنوم قد غادره كلية . لم يقترب من عينيه بل لم يتثأب وقرر أن يستحضره بالقوة . فلا يمكن أن يبقى في سريره ساعات مستيقظاً . وقد يداهمه حينما يكون من الواجب أن يغادر المكان . ونهض وخلع ثيابه . وطفق يلعب تمارين رياضية تعلمها أثناء

أدائه الخدمة العسكرية وكلما انتهى التمرين كرره أكثر من مـرة . بهذه الطريقة سـوف أنهـك قـواي العضليـة فـترتخي ويغالبهـا النعاس . وسقط في الفراش إعياء .. ولم يدر بنفسه إلا وقد أشرق الصباح آتياً بالبهجة .

حينما أنتهي من مقابلاته الرسمية . كـان عليـه أن يبحـث عـن مطعم يأكل فيه . ولم يجد غير مطعم شـعبي . قـاده إليـه الـترام القادم من أطراف المدينة إلى وسط البلد . يشـتري نصـف دجاجـة وطبقاً من الأرز وآخر من السلاطة . ويختلي بكرسـي مثبـت فـي الأرض أمام منضدة مثبتـة فـي الأرض أيضـاً .. ولـم يكـن وحـده يأكل . كان المكان يعج بالوافدين فوق ما يمكن وصفه كأنـه بـؤرة التقاء .

يغادر المطعم ليتـأمل المشـتريات فـي أحـد المحـلات الكبـيرة . يتجول فيه . كان ملولاً لا يلبث في محل ساعة . غير أن أصنـاف البضائع المختلفـة وأسـعارها المعقولـة جذبتـه . جعلتـه يمكـث فـي المحل ساعتين ، حتى تفرج على كـل شـيء فيـه دون أن يشـتري شيئاً . يؤجـل الشـراء حينمـا ينـوي السـفر . لا داعـي لأن أزحـم حقائبي في اليوم الأول ، لأتعود على الانتقاء .

حينما خرج إلى الطريق كـان الجـو صحـواً . الشـمس سـاطعة تلفظ أنفاسها الساخنة ومشرقة تبهر العيون بأضوائها وحارقة تجثم علـى الأنفـاس دون خجـل . أخـذ يسـير بجـانب أسـوار المنشـآت المختلفة . اختفت الشمس كأنما قـوة جبـارة اختطفتهـا .. وأظلمـت الدنيـا ونظـر إلـى السمـاء فوجـد سـحباً سـوداء ملبـدة تفصـل بيـن الفضـاء والأرض كأنهـا خفـافيش تجمعـت وتزاحمـت فوقــه . ثـم أمطرت كالقنابل . لا تتوقف كأن شلالاً يحول دون تدفقه سد كبـير

تحطم فأنهمر الماء مدراراً . ورأى الناس قد رفعت المظـلات فـي الحال تتقي بها عنف الأمطار والبلل .

لم يجد أمامه لإنقاذ نفسه من هذا الطوفـان غيـر أن يعـود مـن جديد جرياً إلى المحـل الكبيـر . وتذكـر أنـه قـرأ قبـل أن يـأتي أن الأمطار تهطل أحد عشر شهراً في السنة الواحدة في هذه البلاد .

هناك بحث عن مظلة للوقاية من المطر . ووجد نفسه يشـتريها وكان صادفاً عن الشراء من قبل . في بلاده تستخدم المظلة لتفادي غضـب الشـمس ولـو أن ذلـك يحـدث قليـلاً . وفـي هـذه البـلاد يستخدمها النـاس للوقايـة مـن عنـف الأمطـار بجـانب الفـرار مـن غضب الشمس .

حينما خرج إلى الطريق . لم يكن هناك مطر كأنما كان يلاعبه ويداعبه . كانت الأرض قد امتصـت كـل الميـاه التـي تدفقـت فـي مجار أعدت لها . ولم يكن هناك وحل في الطريق . كانت الشمس تستسلم للغروب . وصار لا فائدة من المظلة الآن وقد كف المطـر عن الانهمار والشمس هدأ غضبها .غير أنه يشعر بالرطوبة بـدأت تمسك بأنفاسه . وبخار الماء قـد غلـظ وجثـم بقـوة علـى الصـدر . ذلك ما تتركه الأمطار بعد أن تنتهي غلاف ثقيل من البخار .

وقبل أن يدخل الفندق بقليل كان الجـو قـد تكهـرب مـن جديـد . وعاد البرق يظهـر وسـمع الرعـد يتدحـرج فـي السـماء . وأخـذت الأمطار – من جديد – تتساقط كجنود يسقطون بالمظلات .. كـان السـحاب الأبيـض قـد مـلأ الفضـاء وأصبـح عقيمـاً لا مطـر فيـه . فكيف عولج العقم بهذه السرعة ؟ ..

أسرع يدخل الفندق حتى يتفادى الأمطار . وبللته بلـلاً كـاملاً . ونسى أن في يده مظلة يمكنه أن ينشرها فوقه فيتقي شر البلل .

الطعن في الصميم

****

تتوهم دائماً أن الطلاق آت لا محالة . لم يبد زوجها حتى الآن ما يدل على ذلك . تفكر وتتأمل وجهها السمين في المرآة . وجسدها المترهل . ولو أن عينيها زرقاوين غير أن أجفانهما اللحيمة غطت عليهما . زوجها طالب نابه أو هو عبقري زمانه . نبغ فيما يسمى بالطب النووي ، كان أبوه يمده بالمال ليستكمل دراساته العليا ، غير أن المال أنقطع فجأة وعرف السبب أن موجة الإفلاس اجتاحت البلاد فأفلست شركة أبيه مع شركات أخرى . وأنحدر حاله وأصبح غير قادر على إمداد ابنه بالمال الصعب ، جفت القنوات وغاضت الينابيع كان ن عليه أن يدفع المصروفات الجامعية أو يغادر أمريكا رغم أنفه . لم يكن لينقذه من هذه الورطة غير الزواج بأمريكية . والعمل بعض الوقت في أحد المستشفيات الحكومية . واستمراره بعد ذلك في اجترارالعلم وامتصاص مائه من منابعه . وقد كان ..

كانت تهيم به حباً ، لكنها تدرك في نفس الوقت أنه لا يهواها . غير أنه تقدم منها وطلبها للزواج . زواجه منها زواج مصلحة .. فهي بدينة لم تستلفت نظر واحد من أهل بلدها فهل تستلفت نظره هو الأجنبي ؟ ... وهي تعرف أن زوجها يسعى الآن للحصول على منحة من الجامعة .. يتمكن بها من دفع مصاريف الجامعة ومواصلة تعليمه ونفقاته الحياتية .

ويحصل على مبلغ يكفيه أن يعيش حياة هادئة .. خالية من الديون والشعور بالحاجة والحرمان والمستقبل المجهول الغامض .

وفي هذه الحالة سوف يستغني عن أموالها ، هو يعرف أنها ورثت الكثير من أمها وأبوها يمدها من حين لآخر بمعونات مالية لا تنفذ . إذ لن يعود يطلب منها نقوداً بعد أن يصبح استقلاله المالي مؤكداً .. حينئذ سوف يطعنها في الصميم .

كانت تود أن يزداد ارتباطهما معاً .. بولد يؤنس وحدتهما ، غير أن الأقدار تشاء أن تكون عقيماً . يبدو أنها ولدت عاقراً .. هكذا قال لها الطبيب . ولا سبيل بعد أن يستقل مالياً ، ويصبح عضواً من أعضاء هيئة التدريس المرموقين بمدرسة الطب ، سوف يبحث في هذه الحالة عن زوجة ولود . وقد تكون مصرية وليست أمريكية . سيصبح من غير اللازم أن يرتبط بأمريكية بعد حصوله على البطاقة الخضراء والمركز المرموق والمركز يجعله يمشي على أرض صلدة .

سألته في الصباح :

– إلى أين أنت ذاهب ؟ ..

قال والبسمة تطل من عينيه :

– ذاهب للسؤال عن المنحة الدراسية ؟

تشاء أن تعطله فتقول له :

– وما حاجتنا لمنحة .. أليست أموالي أموالك ؟ ..

يقول بفصاحة :

– أليس الإنسان بطبعه يطلب المزيد ؟ .. إذا كان الأمر كذلك فما الحاجة إلى دراسة الدكتوراه ؟ ..

تسأله كأنما تخشى أن تفقده :

– ومتى ستعود ؟

يقول وقد بدأ الغضب يحدث دبيباً في قلبه :

– أنت تعرفين أنورديتي في المستشفى تبدأ الساعة الثانية بعد الظهر .. فمتى تظنين أنني سأعود ؟ ..

تسكت مرغمة ولا تنطق . ويبدأ شعورها بالخوف يغزو مشاعرها . حينما يشعر باستقلاله المادي سوف يتركني ؟ .. لو كان في مقدرتي أن انجب ولداً لأرتبط بي ؟ ..أو على الأقل كنتٍ سأجد ما أشغل به وقت فراغي ؟ ..ولم لا أعمل أنا الأخرى بدلاً من أن أقضي وقتي بلا عمل في البيت ؟ .. الثروة قتلت فيّ حبي للعمل . ولكني ماذا سأعمل ؟ .. أنا .. وقد انتهيت من المدارس العليا ولم أدخل الجامعة ؟ .. لأتعلم .. لأتعلم .. وألتحق بعمل مناسب بعد ذلك يشغل وقت فراغي .

غير أنها استسلمت للنوم والكسل مرة أخرى وقامت تعد كعكا في الفرن . تجيد إعداده ويحبه زوجها . إنه بدين مثلها لكن هذه البدانة أحاطت بجوهرة تلمع في رأسه . أما هي فقد دُفن في بدانتها عقيق لا قيمة له لا بريق له لا لمعان . وخرجت تبحث عن أحد المعاهد الخاصة . واستقبلتها السيدة المشرفة على المعهد . وأجرت لها عدداً من الاختبارات ثم اقترحت عليها أن تدرس الحاسب الآلي فمستقبله مضمون ومعروف . وقد دخل في أعمال كل المؤسسات الآن مثلما دخل الماء في كل الأجساد . ووافقت ودفعت اشتراك الدراسة .

حينما أظلمت الدنيا طفقت تفكر في مصيرها . وبعد أن أدرس لن أكون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً به . إذا طلقني بعد أن يضمن مستقبله فلن تكون الطعنة نجلاء ، سوف تشغلني دراساتي وعملي الجديد من بعدها عن التفكير في طعنته . ستكون الطعنة خفيفة لن تنفذ إلى القلب . قد لا تتعدى الإهاب . قد يسيل دم قليل بعدها .

ويوقفه قليل من المراهم .. آه لو لم أتخذ خطوتي ! .. ولم أفكر أن أدرس وبعدها أعمل لكانت الطعنة دامية . ولوصل النصل إلى القلب . وقد انزف دماً غليظاً . ولربما أعيش لكن حياتي ستكون مهدمة . مليئة بالملل .. والأرق والقلق . ولا أهمية الآن لأن أجد بعده رجلاً أو لا أجد ، فسوف تشغلني دراساتي وعملي عن التفكير في الرجل .

كان الليل قد خيم على واشنطن العاصمة تماماً . وأصبحت الشوارع خالية من السابلة وخرج من المستشفى في ساعة متأخرة . وأندس بين الناس في المترو . كانت هذه الساعة تعتبر من ساعات الذروة ، فأزدحم المترو فوق الطاقة . غير أن الإزدحام أخذ يضمحل كلما أقترب من فرجينيا وبدأ الناس يشعرون بالفراغات حواليهم . وكان يجلس سعيداً على المقعد . الآن فقط بدأ يشعر بآدميته . من العار فعلاً أن تعتمد على أنثى . إن تقرير المنحة جاء في وقته . كدت أفقد كرامتي وأنا أعيش عالة عليها . أعترف الجميع بقدراتي الذهنية وباركوا مجهوداتي العلمية وقرروا المنحة . الإفلاس الذي لحق بأبي هزني . ولكن ها هي آثار الهزة تتضاءل . انتهت موجات الزلزال المدمرة وعادت الحياة إلى طبيعتها .

نزل من المترو ليجد سيارته تنتظره . سيارة صغيرة لكنه لا يقودها في المسافات الطويلة بين فرجينيا وواشنطن العاصمة . توفيراً لنفقات الوقود . المترو جاء في وقته إنقاذاً لأمثاله . لكن قد يستخدمها حينما يتأخر في الليل وتكون ورديته تنتهي في الفجر . الوقت الذي يغلق فيه المترو أبوابه ولا يفتحها إلا في الصباح .

دخل عليها فوجدها تجلس في الظلام ، وتنظر إلى حديقة العمارة في ذهول لكن الغمة على وجهها كانت قد زالت وأضا النور ، وهو يقول :

– ألا تشعرين أن الظلام يؤثر على نور عينيك الزرقاوين ؟ ..

تسخر قائلة :

– ماذا أفعل بهما سيجعلهما حمراوين .

ثم تساءلت دون ما حاجة إلى رد :

– ماذا فعلت في المنحة ؟ ..

لثم خدها وهو يقول :

– أصبحت الآن أقف على أرض صلبة .

– بارك الله في مالك .

انتظرت طويلاً أن يطلقها . استمرأت الانتظار والحجج تتجدد ، فما زال أمامها أن يحصل على الدكتوراه ويطلقها . ومازال أمامها أن يبقى في أمريكا ليكون ثروة وبعدها ينفصل عنها . وما زال أمامها أن يغادر أمريكا ولا يأخذها معه . ودرست واشتغلت وهي لا زالت تنتظر . غير أن نار القلق والأرق بدأت تخفت .. وتبرد .

الغجري

****

بهرتنا الدولة المتقدمة بحضارتها . كنا نسير في الشوارع مقطوعي الأنفاس . نتفرج على النظافة التي تعم كل مكان . ما يكاد يغطي الأرض الندف بلونه الأبيض الشاحب ، حتى تعود من جديد سوداء تلمع . وإذا أردنا أن ننتقل فأمامنا الترام يبدو فارغاً . لا يجلس فيه أحد مع أن الركاب واقفون .. صحتهم جيدة لا أهمية لديهم أن يجلسوا .. وهكذا السيارات العامة أو المترو الذي يجري تحت الأرض مخترقاً ضفتي نهر الدانوب . ينتقل من شطر المدينة إلى شطرها الآخر . دون أن يُسمع خرير المياه فوقنا . ونحن نركبه . وكنا نتمشى بالرغم من سهولة المواصلات نتفرج على الحوانيت الكثيرة المليئة بالبضائع والخيرات .

اقتربت منا إحدى السيدات ، سمراء اللون ، ترتدي ملابس مميزة ، تختلف عن ملابس النساء الأخريات . أشارت بطرف إصبعها في تخف واضح : ذهب .. ذهب .. تعرف أننا عرب وتنطق الكلمة باللغة العربية . لكننا لا نشتري حتى لا نقع في مصيدة النصب . كم سمعنا عن النصابين الذين باعوا النحاس على أنه ذهب في بلادنا ، فهل نسقط في فخ النصابين الأجانب ؟ ..

يقول صديقنا العريف إن هذه المرأة من الغجر . والغجر قوم رحل لا يستقرون . ينتقلون من مدينة إلى أخرى ولا عليهم

واجبات وقد يُستخدمون في مهن تافهة ليس لهم حقـوق ولا عليهـم واجبات .. السكان الأصليون يأنفون منهم . وهم لا يشـاركونهم لا الحياة العامة ولا الخاصة . استغربنا أن يكون في بلـد متقدم مثـل هذه الفئة .

حينما قرصنا الجوع ، اتفقنا على أن نـأكل قطعـاً مـن الدجـاج تُباع بسعر زهيد – وفي نفس الوقت – يتم شـواؤها بطريقـة تفتـح الشهية . وقادنـا صديقنـا العريـف إلـى المطعـم الموعـود . ووقفنـا ننتظر حتى نتسلم مآربنا . كان يقف بالقرب منا صديقان قد تركـا مـا اشـترياه مـن قطـع ، وطفقـا يتحـاوران حـواراً جـاداً طويـلاً . وألتفت أحدهما إلى الآخر ، يؤكـد عليـه أمـراً ، وقـد تـرك طبقـه الورقي دون أن يمسه موضوعـاً علـى المسـند المهيـأ فـي صـورة مائدة يأكل عليها الفرد واقفاً . وظهر كأنما تركه .

جاء رجل مهلهل الثياب تبدو القذارة كأنما اتخذته سكناً . يحمل فـي يـده كيسـاً مـن القمـاش .. راح يتشـمم الموائـد كـالقط يتـأمل الأطباق الورقية المتناثرة وبها قطع من اللحـم تركهـا أصحابهـا .. يلتهمها بسرعة كأن وراءه موعداً .. راح القط الأجرب ينبش في العظـام المتروكـة حتـى يجـد شـيئاً آخـر يؤكـل . وأشـار صديقنـا العريف أن ذلك واحد من الغجر .. انظروا ثيابه الممزقـة المرتقـة .. ووجهه الأسمر وعينيه السوداوين وحاجبيه الكثيفين . وحركاته المتوترة . وأخذنا نتأمل الرجل بإمعان . ويبدو أن صاحب الطبـق المتروك أهتم بحـوار زميلـه فنسـاه . وظهـر أن الغجـري ظـن أن

الطبق ليس له صاحب لأن المحاور مع الآخر قد أعطاه ظهره وأنهمك في الحديث بلغة البلاد .

وهكذا خمن أن الطبق مباح اقتناصه ، فامتدت يد الغجري لتسحب الطبق القريب من المتحاور لتأخذه أمام الغجري ، فألتفت إليه ونهاه بلغته وعنفه بشدة وكأنما كان يقول له : هذا طبقي فكيف تضع يدك عليه ؟ ..

انسحب الغجري بهدوء ودون أن يبدو عليه أي ارتباك . بارد في تصرفاته كالثلج . وراح إلى المساند الأخرى التي يُوضع عليها الطعام ، ليتشمم الأطباق ويفحصها .. تلك التي تركها أصحابها وفيها بقايا من لحم أو جلد ومضوا خارج المحل . وعاد من جديد يتشمم ويتفحص حولنا . وكان المتحاور لا يزال منهمكاً في الحديث كأنما يدافع عن قضية عسيرة الفهم أو لعله لا يأكل لحم الدجاج إلا بارداً . وإذا بالغجري تمتد يده من جديد إلى الطبق تريد أن تستولي عليه . ، كأنما نسى أن المتحاور سبق أن نهاه عن ذلك .. غير أن الرجل أمسك بملابسه بشدة ودفعه بعنف خارج المحل . وكأنما كان ينادي راعي المحل ، فقد ألتف حواليه أكثر من ندل .. وإذا الغجري يهرب وسط الزحام ويختفي .

يأكل المتحاوران قطعتيهما . ونتسلم أطباقنا ساخنة يتدفق منها البخار الحار ونشرع في ألتهامها بشهية متدفقة . وينتهي المتحاور وصديقه من طعامهما ويغادران المحل وقد مسحا شفاهما بمناديل ورقية .. تركاها على الطبق الورقي مع بعض العظام وجلد

الدجاج . وإذ بنا نرى الغجري يدخل من جديد ليقترب من طبقيهما ويقربهما إليه .

استغربنا أن لا يندمج هؤلاء في مجتمعاتهم ويعملون بدلاً من هذه الحياة المقززة . شعرنا بالحسرة والغبطة في نفس الوقت . وأجاب صديقنا العريف على سؤال لنا إنهم يستمرؤون هذه الحياة المهينة . وقلنا في نفس واحد إن مجتمعاتهم لا ترضى أن تضمهم إليها بل تلفظهم فالذنب ذنبها وليس ذنبهم .

تتهمني بالبخل

****

طُبعت صورتها في مخيلته ، ولم تفارقها . عندما شاهدها عند خالتها في القاهرة . وقرر أن يضع خاتماً ذهبياً في إصبعها ، وشد الرحال إلى الإسكندرية ، ومعه أبوه وزوجة أبيه وأخواته البنات لخطبتها . وأكلوا الحلوى وشربوا الشاي ، واتفقوا وعادوا . لكن بعد المسافة بين القاهرة والإسكندرية حال دون اللقاء المتجدد . كانت مرتبطة بأداء ضريبة الخدمة العامة ، والعمل بعد العصر في تلك الدار التي تؤدي فيها تلك الخدمة . فكان اللقاء أقرب إلى المستحيل . ولم يلجأ إلى اللقاء على الهاتف فقد كان مكلفاً في نظره وكان يعوذ به حينما يبرح به الشوق إلى سماع صوته الرخيم . أما أن يسافر هو إلى الإسكندرية ليتمتع بالقرب فكان أمراً يرهق جيبه . وتعلل في ذلك الوقت بمشاغلها ومشاغله . إذا توجه إليها يوم الأحد فلن يلقاها لأن عملها كان يمتد إلى ما بعد التاسعة مساء . وإذا سافر إليها يوم الجمعة فسوف يشاهد أشكالاً مختلفة من الامتعاض تظهر على وجه السيد الوالد وسحنته . وكان يساعده في عمله في حانوت كبير لبيع الأدوات الصغيرة . يفكر كثيراً أن يفلت من هذا العمل ليمارس عملاً مستقلاً ، يتماشى مع ما تعلمه في الجامعة غير أن الوالد يضن عليه ويريده بجانبه هو وأخوته . ولم يكن من السهل أن يختصر فترة الخطوبة ويتزوج ، فقد كان والده قد وعده ببناء شقة في عمارته القديمة ،

راسخة البنيان . غير أن الوالد يبرز الجنيهات بصعوبة من جيبه ، ولا ينفقها إلا بالكاد . وقد يكون قد قلده في هذه الخصلة السيئة غير أنه يعد تصرفاته نوعاً من أنواع الحرص ، ليس من السهل تبديد النقود دون أن تذرف عليها الآهات وعليك أن تنفقها في وجهها السليم . سأل عنها بالهاتف يوماً . قالت له أمها :

– لقد أصيبت ابنتي بتسمم من أثر أكل الفسيخ ونقلت إلى المستشفى .

سأل منزعجاً :

– والحالة الآن مطمئنة ؟ ..

أجابت الأم دون أن ينقل صوتها معالم وجهها :

– سوف تخرج بعد يومين .

قد تكون نشأته يتيماً هو وأخوته الذكور قد باعدت بينه وبين معرفة التقاليد ، فالأم تعلم وتربي . وزوجة الأب قد تحول دون العلم ولا شأن لها بالتربية ، لذلك كانت مسائل الواجبات – خاصة في فترة الخطوبة – غائبة عنه بالحس و يجهلها بالممارسة . وفي هذه الحالة ماذا يفعل ؟ .. لا يتمكن من أن يأخذ ويعطي مع والده ، فهو صارم .. كل وقته للعمل . وزوجة الأب لا تصلح . إنه يريد أن يقوم بالواجب ولكن دون إرهاق مادي .. أمامي معترك الشقة وتأثيثها . ويجب أن أدخر كل جهدي ومالي لذلك . فماذا أنا بفاعل في هذا الظرف .

وفي زيارة لخالة العروس ، قال لها :

- أنت مثل أمي وأنا أستشيرك .
قالت الخالة بصدر رحب :
- تفضل .. ماذا تريد ؟
- أنت تعرفين نبأ تسمم العروس ؟ ..
وهو يبتسم تقول له : نعم .. عرفنا .
- فهل من الواجب زيارتها ؟ ..
- دون أدنى شك .
- وفي هذه الحالة ماذا يجب أن أحمل معي من هدية ؟ ..
- أحمل معك زجاجة ماء عطر مثلاً أو كيلو من الشوكولاتة .
- وما رأيك لو اشتريت لها كيلو برتقال ويوسف أفندي ؟..
-أجننت . أهذه هدية تدخل بها على مريض أصيب في معدته . تدخل بها على عروسك . ماء العطر يمكن أن تتعطر به وتتذكرك وهي تستعمله . وكيلو شوكولاتة يمكن أن تقدم منه إلى ضيوفها عند زيارتها في المستشفى أو عيادتها في بيتها .

- لكنك تعرفين ثمن زجاجة العطر .. ولا تدركين قيمة كيلو الشوكولاته ، أو لعلك تعرفين ولكنك تريدينني أن أبعثر الجنيهات .. أن أرهق جيبي العزيز .

وعاد يسأل : وما في البرتقال واليوسف أفندي ؟ ..

سكتت الخالة دون أن تجيب . وتسربت آثار امتعاض مكبوت تحت عينيها . وظهر لها أنه مصر على رأيه . وأن أي حجج لن تثنيه عما في رأسه الصلد .

وفي الليـل طلـب أخـت العـروس . وكـانت تسـكن القـاهرة مـع زوجها وأولادها . تكبره في السـن ، فهـي إذاً لديهـا أدراك شـامل بمسألة الواجبات خاصة في فترة الخطوبة . وسألها : هـل عرفـت الخبر ؟

– نعم .. عرفت .

– أليس من الواجب أن أزورها ؟

– نعم .. من الواجب .

– وما رأيك لو حملت معي هدية ؟

– لا داعي لأن تتعب جيبك .

– ليس في ذلك تعب .

– إذا كان من الضروري أن تتقدم بهدية فلا بأس .

– وماذا تقترحين ؟

– أي شئ ثمين .

– وما رأيك لو أخذت معي كيلو برتقال وآخر يوسف أفندي .

– البرتقال واليوسف أفندي مـلء الدنيـا ، وحينمـا تحمـل هديـة إلى إنسان عزيز ، فيمكن أن تكون مميزة .. أو نادرة عنده .

أجاب مستغرباً ومتسائلاً : وما في البرتقال واليوسف أفندي ؟

أجابت : خذ ما تراه .

وفي لقاء آخر مع خالتها سأل مرة أخرى :

– لم لا تريحين قلبي يا خالتي ؟

– ما هي الراحة يا فتى ؟

– ماذا أحمل من الهدايا ؟ ..
أجابت بسرعة : خذ برتقالاً ويوسف أفندي .
قال ممتعضاً : أتسخرين مني ؟ . .

حينما توجه إلى السيارة التي تشق الطريق من النيل إلى البحر شعر بهزة في قلبه . والرجل يقطع تذكرة بسبع جنيهات كأنما سكين حاد مزق أحد الأوردة . وقال لنفسه : ومثلها سوف أدفعها وأنا عائد .. ماذا يحدث لو اتجهت إلى الشركة الأخرى .. تذكرتها بخمس جنيهات . لقد تسلمت التذكرة وأنتهي الأمر . سوف تجد الراحة في هذه السيارة وتشاهد رواية من المسجل المرئي .. وقد تسمع أغنية جديدة . شعر بالملل يزحف إلى قلبه ، وصور الرمال لا تتجدد . أرض ذاخرة باللون الأصفر أستعمرها دون رجاء أن ينسحب منها . وحينما توقفت السيارة عند الاستراحة التي تقع في منتصف الطريق .

شعر أنه يرتاح قليلاً من الملل . سوف يتغير اللون دون أدنى شك . كنت تأمل أن ترى رواية وتعلل السائق أن جهازه أصيب بعطب .

رأى عن قرب منه بائعي الفاكهة . هذا عنب بناتي .. ما ألذه ! .. وذلك برتقال ..ما أبدعه ! .. وهذا يوسف أفندي .. ما أطعمه ! .. وذلك تفاح ، فأعرض عنه حتى لا يشاهد ورقة التسعيرة التي تزينه . كان البائع قد وضع السعر على ورق مقوى عريض كأنما

ليخرق عيون الناس . حينما ركب السيارة مرة أخرى ، وهو يخفي لفافة في يده ، نظر إلى ساعته ..

مضى وقت طويل لم يهنأ بمشاهدتها .. تلك العروس البعيدة . هذه الخطبة لو طالت لعذبه الشوق . والوالد لا يتحرك . توقفت حركته بعد أن أستخرج رخصة تعلية المبنى . يبدو أن فتح خزانته أمر يكربه . أما هنائي فلا قيمة له عنده .

لم يمض إلى سيارة الأجرة الواقفة أمامه ، إنما أتخذ سمته إلى الترام .. في هذه المواصلة التي انقرضت من القاهرة طرافة .. سوف أتمتع بركوبها . وأقول إنني ركبت الترام قبل أن يندثر أثره . أذلك لأنه سيحال إلى المعاش يوماً أم لأن هناك فرقاً بين تذكرة الترام وأجرة السيارة . عيبك أنك تتهمني بالبخل . أنا لست بخيلاً . أنا حريص ليس إلا .. ما الفرق بين أن اصل راكباً تراماً أو أبلغ هدفي راكباً سيارة ؟ .. ففي كلتا الحالتين سوف أصل .

لاحت محطة الترام . وأقترب المنزل . حملته درجات سلم العمارة إلى الدور الخامس . حاملاً هديته .. تلك اللفافة . دسها في يد حماة المستقبل وهي تتسلمها بامتعاض وهو يقول :

– هذا برتقال ويوسف أفندي سوف تأكلين أصابعك وراءه . ناضج ولذيذ وطازج . من استراحة الطريق الصحراوي .

أحلام صاحب العمارة

****

لو رأى العمارة واحد من النـاس لظـن أنهـا تـدر أمـوالاً طائلـة ولظن أنه يسمع خرير نقودها واضحاً . لا يعرف أن إيجار الشـقة بها كان ستة جنيهات وأنخفض إلى أربعة . ثـم إلـى ثلاثـة .. دون أن يساهم واحد من المستأجرين في الصيانـة والتجديـد والنظافـة ، لعله سيسمع أنيناً بعد أنين ذلك المتـأمل .. مـاذا أقـول ؟ .. لـو أن قانون الإسكان الجديـد صـدر الآن لأنقلـب الوضـع وسـأتحول مـن صاحب ملاليم إلى صاحب آلاف الجنيهات . من رجل لا دخل لـه إلى رجل ملئ .. يلعب بالمال .

إن هذه العمارة خمس طوابق .. في كل طـابق شـقتان .. وكـل شقة خمس حجرات أو أربع حجرات . شقتان متقابلتان مسـاحتهما ذات عرض وطول كبيرين . ماذا أقول ؟ .. يمرح فيها الحصان . إذا ما صدر القـانون سـوف أطـرد جميـع المسـتأجرين .. أو لنقـل سـوف أسـاومهم أن يدفعوا عن كـل شـقة مائـة جنيـه أو يغـادروا العمارة إلى الأبد .. ماذا ستكون حصيلتي من هـذا كلـه ؟ .. ألـف جنيه في الشهر أي أثنا عشر ألف في السنة .. وإذا قمت بتأجيرها مكاتب وكل مكتب يدفع خمسمائة جنيه .. يا للفرحـة .. لكـن متـى سوف يصدر ذلك القانون .

زغرد جرس الباب .. من يكون ذلـك القـادم فـي الصبـاح ؟ .. توقف عقله عن الاسترسـال فـي أفكـاره . ووضعـت يـده الجريـدة

الصباحية على المائدة الصغيرة المجاورة ويتحرك جسده الممتلئ ليفتح الباب . حينما تلعب بالآلاف يا أبا حسام ، حينما يأتي الكنز المغيب ، سوف تكون لديك خادم تفتح لك الباب على مصراعيه . لن تتحمل مشقة الحركة .. سوف يكون لديك سيارة وسائق لزوم السيارة . سوف تدخل أماكن لم تشهدها .. وتخرج من أزمنة لم تعرفها .. لن تذهب مثلما تفعل الآن لفتح الباب ، ستصدر الأوامر وستجاب على الفور .

يفتح الباب . يرى أمامه الأرملة ساكنة الدور الثاني في الشقة ذات الحجرات الخمس ، سكنتها منذ زمن بعيد وتعتذر من شهر إلى آخر عن عدم دفع الإيجار ، ثم يحدث أن تدفعه ، وتعود من جديد تعتذر ، متعثرة للغاية ، تربي يتامى . ويتغاضى هو عن عدم تسديد الإيجار رأفة باليتامى . أولادها لا يزالون في المدارس والبعض منهم دخل الجامعة . لم تفكر أن تلحق واحداً منهم بوظيفة حتى يساعدها في مصروف البيت وتستند على عكاز اسمه معاش استثنائي .. صدر لها بمناسبة وفاة زوجها في سن مبكرة . لم يتمكن أن يستجمع السنين اللازمة لإصدار معاش طبيعي . ماذا تريد هذه الأرملة ؟ .. أتريد أن تدفع أم تريد أن تعتذر ؟ .. ليس من عادتها أن تطلب السماح وإنما تأتي حتى يتجمع في يديها جنيهات ثلاث تتبقى بالكاد من المعاش وتأتي لدفعها ؟ .. يسألها وقد جلست :

– خير ؟ ..

قالت بضعف :

– خير .

ثم استطردت : أنت تعرف أن شقتي مكونة من خمس حجرات والشقة المقابلة لي من أربع حجرات . وقد رأى المستأجر لهذه الشقة أن يأخذ مني حجرة فقد زاد عدد أولاده .

قال : وما المانع ؟ ..

أجابت توضح : جئت أستأذنك .. لعلك ترفض أن أضم له الحجرة الخامسة . وأستقر أنا وأولادي في الحجرات الأربع .

أينتهز الفرصة ويحاول أن يرفع الإيجار على الساكن الآخر ، على اعتبار أنه يستأجر سكناً جديداً ؟ .. وما الفائدة ؟ .. سيكون العائد ملاليم جديدة . لتكن كريماً ولا تهتم .

قالت المرأة : أشكرك شكراً جزيلاً . هل أطمع في موافقة كتابية منك على ذلك .

قال بضجر : يا سيدتي . ما الفرق أن تذهب الحجرة إليك أو تذهب إليه . أنك تدفعين ثلاث جنيهات .. وهو يدفع نفس المبلغ . رغم أن الشقتين مختلفتا الحجرات .

ثم يسر في نفسه أمراً ويقول : أنتظري فقط صدور القانون الجديد للإسكان سوف أطيح بك وبه حتى أرفع من مستواي قليلاً .

قالت بهدوء : إذا كان الأمر كذلك ، فأسمح لي أن ادفع الإيجار المتأخر عليّ .. ثلاث شهور .. هل تكتب لي الإيصالات اللازمة ؟ ..

ينهض ويتجه إلى مكتبه لكتابة الإيصالات . إذاً فقد سالت الأموال في يديها .. لا بد أنها تصرفت في هذه الحجرة بمقابل مجز . تتصنع السذاجة وهي تحاول أن تلتقط موافقتي على تصرفها . اتفقت وقبضت وجاءت تطلب أن أبارك اتفاقها . لا تريد لي أن أشارك في هذه الصفقة التي عقدتها . ألا يجوز أن أتدخل الآن وأطالبها بنصيبي في ثمن نقل الحجرة منها إليه . إنها امرأة فقيرة . يمكنك أن تطالب الساكن الآخر في ذلك الثمن . ولكن ربما يدعي أنه لم يدفع لها شيئاً ، وان المرأة مجاملة منها ولظروفه وهبته هذه الحجرة . إذاً فلتلغي الصفقة تماماً . يا رجل .. هذه امرأة فقيرة تجرى وراء أيتام . ماذا يحدث لو فعلت خيراً .. ألا استفاد من التصرفات التي تقع على ملكي أبداً ؟ ..

يكتب الايصالات الثلاثة ، ويعود إلى المرأة فتناوله تسعة جنيهات . وتنهض مستأذنة أن تعود .. يشعر بالفرحة والبشر يملأ وجه المرأة المتغضن . وسأل نفسه : إذا كنت في هذا التصرف البسيط لم أطالب بحقي ، فهل إذا صدر قانون الإسكان الجديد أستطيع أن أطرد هذه السيدة ؟

سبع ساعات

****

ظننا في البداية أن قطار الشرق السريع قد بلغ فينسيا . لكن بعض الركاب أخبرنا أن المحطة في داخل الحدود الإيطالية . قريبة من محطة فينسيا .

كان التعب قد استطاع أن يجلدنا طوال الليل . وعلقنا من رقابنا حتى استنفد معظم قوانا . نمنا أثناء زحف القطار في الظلام ، لكنه نوم مضطرب . أقلق راحتنا مفتشو الجوازات في كل بلد مررنا به . يدخلون علينا ديوان القطار كما لو كانوا يطاردون لصوصاً وقد أناروا بطارياتهم في عيوننا كأننا في غرفة التحقيق نستجوب . ويطالبون بإبراز هويتنا ونشر مستنداتنا وتفتيش حقائبنا كما لو كنا متسللين إلى الأراضي التي نعبر بها . ولم يقتصر الهجوم على محطة واحدة إنما عدد من المحطات بعدد البلاد التي مررنا بها لذلك كان النوم يترنح داخلنا مذبوحا واليقظة تبدو ناعسة العينين . وضيق الصدر يطاردنا لا يريد أن يرحمنا ولا يأبه للرحيل . ظل جاثماً على قلوبنا إلى أن لاحت محطة فينسيا . نهاية مطاف السفر ، فجاء إلينا الاطمئنان ناشراً جناحيه .

كانت المدينة مشغولة بأحد الأعياد الوطنية فغرقنا في زحام طويل ، وأردنا أن نخزن حقائبنا فأوصى المسافرون بمخزن الأمانات . كانت المسافة بين محطة القطار ومخزن الأمانات طويلة يمكن للمسافر بلا زاد أن يقطعها في دقائق لكن إذا كان

يحمل عدة حقائب تنوء بما فيها من محتويات فكان من الصعب حملها والسير بها دقيقة واحدة . ووجدنا ضالتنا في هؤلاء الحمالين الذين يحملون أثقال المسافرين على عربات تجرى ببطء على رصيف المحطة . وحينما بدأنا نسأل عن الثمن فزعنا . قال الحمال إنه ثلاثة آلاف ومائتان ليرة إيطالية . ونظراً لجهلنا بالعملة أردنا أن نساومه . غير أنه أبى .. وصمم على السعر . وأخذنا نداول الأمر بيننا ، ثم اكتشفنا أن المبلغ لا قيمة له .. إذ اتضح أن الليرة تساوي مليما في عرفنا المصري . وضحكنا على أنفسنا وعلى جهلنا ، فالأمر لا يعدو ثلاثة جنيهات وعشرين قرشاً . مبلغ تافه يتم تقسيمه على أربعة أفراد .. وقبلنا في النهاية أن ندفع للرجل ومضى يبحث عن رزق آخر . ولم نساوم مخزن الأمانات في تسعيرة إيداع الحقائب . فقد عرفنا فك شفرة العملة وترجمتها وأصبحت لا تعكر صفونا لغة الأرقام .

وانتدبنا من بيننا أثنين للبحث عن فندق نبيت فيه ليلتين حتى نسافر ، كانت الباخرة سوف تقلنا إلى الإسكندرية في يوم الثلاثاء . وكان وصولنا إلى فينسيا يوم السبت .

خرج الزميلان يجوبان المدينة بحثاً عن فندق وعانوا من الزحام والاحتفالات بالعيد . كانت المقاهي مكتظة بالرواد . والمحلات فتحت أبوابها والتهمت في داخلها جموعاً وجموعاً . الفنادق علقت جميعها لافتة تعلن أن العدد كامل حتى الفنادق في الأزقة والحواري كانت كاملة العدد وكان الفجر على وشك البلوج

والجو بارد والريح تصفر حينما عادا يأسفان على أقدامهما التي ذابت من المشي . وترنحا وهما يجلسان على المقاعد الحديدية التي اصطفت داخل قاعة بالمحطة . لسعهما الحديد غير أنهما تحملاه حتى يقتنصا قليلاً من الراحة ، وحينما استراحت أعضاؤهما أخبرانا أن فندقاً سوف يستقبلنا عند تمام الساعة السابعة إذ ستفرغ حجرة بها أربعة أسرة . ووعد صاحب الفندق أن يسلمنا إياها في تلك الساعة .

وأخذنا نحاول أن نستسلم للنعاس ، ولو أنه كان عسيراً . واحد منا طفق يمشي ذهاباً وإياباً . يكره تلك الساعة التي نزل فيها إلى تلك المحطة . وآخر حاول أن يستند إلى المقعد الحديدي وينام لكن النوم جافاه تماماً ، فعبس وجهه وقطر هماً . وثالث تمدد على المقعد الحديدي وراح في النوم . كان النوم غذاء لمن في حالته . والرابع أخرج كتاباً من حافظته وأخذ يقرأ . يقتل الوقت قبل أن يقتله .

كان اليوم في أوائل مارس . والريح بدأت تعبث خارج المحطة غير أنها اكتفت بنشر جرعات من البرودة في داخلها .. لكن القاعة كانت مغلقة فلم تتمكن أن تعبث بشيء داخلها . واستطاعت المدفأتان أن تحدا كثيراً من البرودة لكن الحرب بينها وبينهما لم تتوقفا.

ظهرت على الوجوه علامات الانتظار الممل . غير أن أعداد المنتظرين كانت قليلة فلم يتجسم الانتظار في صورة مخيفة . ولم

تكن الأجساد قادرة على اللف في المدينـة الجديـدة سبع سـاعات .
كان التعب قد حل وبدا واضحاً على الوجوه وتقـدم الأعمـار ظهـر
على العيون . والوهـن مـن رحلـة طويلـة يعـرض بضاعتـه علـى
العيان .

فجأة وجدنا الممدد على المقعد الحديدي ينتفض ويهتز وتصطك
أسنانه . لقد لسعه المقعد في كل جسده ونشر برودة نافضة فيـه لا
تقاوم . لم يقو على أن يتحرك لذلك تطوعنا أن ننقلـه بجـانب أحـد
المدفأتين الموجودتين بالقاعة . نام ثانية علـى البـلاط لكـن المدفـأة
كانت قوية تنشر شعاعها بشدة خاصة فـي المنطقـة المحيطـة بـه ،
فلم يتمكن البلاط من لدغه مثلما فعل المقعـد . وطفقنـا نقلبـه وهـو
مستسلم وأسنانه تتصادم . وأطرافـه ترتعـش حتـى نفذت الحـرارة
إلى جسده فطردت فلول البرودة وهربت عوامل التوتـر . واختفـى
أثر المقعد الحديـدي علـى وجل واسـتكان قليـلاً . وكنـا نظـن أنـه
سينهض بعدما يهدأ غير أنه أسـتغرق فـي النـوم مـن جديـد . كـان
شعر رأسه المائل إلى البياض الملطخ بالأصباغ يـدل علـى أنـه لا
يتحمل الأرق .

حينما تسلل شـعاع الصبـاح إلـى داخـل المحطـة . هرعنـا إلـى
الفنـدق الموعـود . وجدنـا الحجـرة التـي وعدنـا بهـا قـد جهـزت .
غرقنا جميعاً في نوم لذيذ لم نفق منه إلا بعد الظهر . نام معنا ذلك
الذي أحتضنه النعاس وهو راقد على البلاط يعوض سـبع سـاعات
عجاف بسبع ساعات سمان .

غسالة أطباق صغيرة

****

هل من سبيل إلى العلاج ؟ . . لا .. إنها حالة نشأت وتربت وترعرعت معها منذ الزواج . تصر على شراء الشيء حتى تشتريه مهما كانت المعارضة . وقد أصرت على شراء غسالة أطباق صغيرة . كل نساء العائلة في مصر اشترينها وكان عليك أن تبحث عنها من مكان إلى آخر بالمواصفات المطلوبة ، لكن الإجابة كانت : لا يوجد . ليس هناك غير غسالة أطباق كبيرة .

وفي مصر ، عادت الزوجة من جديد تردد نفس الأسطوانة . ولم يكن هناك غير أيام معدودة . كل ما له ثمانية أيام لا غير . تم قضاء اليومين الأول والثاني في دفع ضريبة العاملين في الخارج رغم أن المحكمة الدستورية العليا حكمت بأن الضريبة غير دستورية لكن مصلحة الضرائب لم تعترف بالحكم . رفضت أن تناقش الحكم على زعم أنه لم ينشر بعد في الجريدة الرسمية . ويومان آخران ذهبا في تجميع النقود من المصارف المختلفة حتى يكون الإنسان جاهزاً لمواجهة مصاريف الفرح . خاصة أن الإجازة غير اعتيادية ، فلا يصرف للمتغرب العامل الأجنبي أي حق مالي فيها مقدماً . ثم اليوم الخامس أقيم فيه فرح الابن المهاجر إلى أمريكا في بلد العروس بالبحيرة ، لأن الابن يرفض الزواج من أمريكية ، يريدها مصرية خالصة حتى يحس بولائها وأخلاصها إذا ما انتقلت للعيش معه في أمريكا . وفي اليوم السابع

كان هناك الفرح الكبير في دار من دور القوات المسلحة التي يمكن للمدنيين أن يستأجروها ويعدوا الزفاف فيها .

وقبل الفرح عادت الرغبة في البروز . تريد الزوجة أن تشتري غسالة كهربائية للأطباق صغيرة . وليس هناك غير يوم واحد . أشتريها أنت . وتعالي بها . لا . أشترها أنت وخذها معك . وهكذا بحث عن الشركة المصنعة ، فوجدها قريبة منه في مدينة نصر .

استيقظ في صباح اليوم الثامن ، يوم العودة والسفر ، واتجه إلى مقر الشركة ، ليشتري الغسالة الصغيرة . وحمله سائق سيارة أجرة ، وكان ودوداً ثرثاراً ، ينتقل من موضوع إلى آخر . يروى قصة حياته . ويروي كيف أخذ رخصة القيادة بعد أن وضع أبوه رأسه على الوسادة وانطلقت روحه إلى السماوات العليا . وهو في سن السابعة عشرة من العمر . وكان يومها اللواء الهمشري قائداً للمرور . وهذا القائد لا يمنح رخص القيادة بسهولة لأي إنسان . ومنحه إياها رحمة به ورأفة .وتناول السائق أجرته عند نهاية المطاف جنيهين . وشكره . بل طلب منه أن ينتظره ، لكن الرجل رفض لأن مقر الشركة يُفتح في الساعة التاسعة ، وقد ينتظر أكثر من نصف ساعة حتى يشتري الغسالة ، والله يعلم متى تنتهي إجراءات التعاقد والشراء والتسليم .

لكن الأمور لم تكن كما تخيل . دخل مقر الشركة ووجد المقر مفتوحاً . واستقبله رجل من رجال الشركة . استلم منه قيمة

الغسالة ، واستخرج إيصالاً ، وأرسل في طلبها ، فجاءت بأسرع مما يتصور . وكان طوال الوقت يتمنى أن يكون قد أمر سائق سيارة الأجرة الظريف أن يبقى منتظراً . لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه . وفجأة وهو ينتظر وينظر إلى الشارع ، وهو واقف عند مدخل الشركة ، رأى سيارة أجرة تمرق أمامه ، فنادى عليها . وتوقف السائق فجأة ، وعاد القهقرى . ووضع العامل الغسالة على ظهر السيارة وانطلقت عائدة إلى البيت . ولم يختلف السائق الجديد عن السائق السابق ، فقد كان هو الآخر ثرثاراً لا يفتأ يقارن بين الحياة في بداية القرن حيث كان العمل اليدوي هو السائد . والاستحمام يستغرق وقتاً طويلاً والطبخ يستغرق عمليات عديدة أعداد وابور الغاز أولاً ومراقبة الطعام وهو يطهى كل ذلك يستهلك زمناً لا بأس به . ثم الغسيل وغسيل الأطباق وتجفيفها . ونهاية هذا القرن حيث أختفي العمل اليدوي وأصبح كل شئ سهلاً ميسوراً . تأخذ حمامك في دقائق من سخان جاهز للعمل . تنزل عليك المياه دافئة من السخان مخلوطة بمياه الدش الباردة . والأكل يعد في دقائق بفضل البوتاجاز . وهاهو غسيل الأطباق يتم آلياً دون تدخل منك ويجفف بعيداً عنك وركوب السيارة المسرعة يصلك إلى بيتك أو مقر عملك في دقائق . راحة ليس بعدها راحة .

ولما بلغ داره ، أعطى السائق جنيهين . رفض السائق بإباء وقال الرجل له :

– ذهبت بسيارة أجرة . وأخذ السائق جنيهين فكيف ترفض أنت الجنيهين ؟ ..

أجاب الرجل بغضب :

– لم تكن تحمل فوق التاكسي أي حمولة .

– أتقصد الغسالة .

– نعم .

استخرج من جيبه نصف جنيه وأعطاه إياه على الجنيهين فقبل ممتعضاً ومضى .

كان من اللازم حمل الغسالة مع حقائب الملابس إلى المطار . وعان صديقه المتبرع بتوصيله إلى المطار بسيارته الأمرين في وضع الغسالة داخل السيارة أو في حقيبتها . وأخيراً هداه تفكيره إلى وضعها في الحقيبة وهي مفتوحة ، وربطها بحبل كان يلف الغسالة وتأكد أنها استقرت على داخل الحقيبة .

وكان عليه أن ينتهي من إجراءات نسب الغسالة إليه حتى إذا عاد بها لا يُطالب بأي ضرائب . واستغرق ذلك وقتاً ثم حملها على العربة ومعها الحقائب ، ومضى إلى الشركة الأمريكية لتتسلمها وتسلمها إليه في المطار الآخر . وهذه الشركة لها تقاليد عجيبة في استقبال المسافرين وحقائبهم . فهي تسأل وتستفسر أسئلة كثيرة تلقيها عليه . وكان السائل في هذه المرة فتاة صغيرة السن . يبدو أنها عصبية المزاج فالتة اللسان . سألته :

- هل رتبت الحقائب بنفسك أم ساعدك آخرون .
- لا .. رتبتها بنفسي . وهذه الغسالة اشتريتها اليوم وأرسلها مع الحقائب .
- هل معك سكين ؟ ..
- لا ..
- هل معك أدوات كهربائية أو غاز سهل الاشتعال ؟

كاد أن ينطق بلا ، لكنه تذكر أن معه الغسالة الكهربائية فقال لها : ليس معي .. ثم توقف وعاد يقول : إلا هذه الغسالة .

قالت بلهجة باردة وقد لاحظت تردده :

- أصح معي .

وكاد يسبها ويشتمها على تطاولها لولا انه أحجم فلا يريد أن تكون مشاجرته مصدر اكتئاب له طول الرحلة . تعامله كطفل وتسأل أسئلة تعرف إجاباتها . تغاضى عن قلة تهذيبها . ومضى إلى مستقبل الحقائب بعد أن سمحت له بالمرور وجر الغسالة والحقائب كبيرة الحجم فآلمه أن يحملها ليضعها على سير الحقائب . لو كانت الغسالة في حقيبة لها يدان لما تألم هكذا .

وعاد يحملها مرة أخرى في مطار الوصول عندما لفظها السير . لو كان لا يزال في مقتبل العمر لما شعر بهذه المشقة ! .. وعندما عرضها على مأمور الجمرك . سأله ساخراً :

- ما في هذا الصندوق ؟
- غسالة أطباق صغيرة .

- ألا يوجد في هذه البلدة غسالات للأطباق ؟
- يوجد لكنها كبيرة . لا يوجد النوع الصغير .
- وفي أي دولة صنعت ؟ ..
- في مصر .
تساءل المأمور بكبرياء وتعال :
- وهل نحن نستورد من مصر آلات ؟
- إن هذه الغسالة لاستعمالي الشخصي وسوف آخذها عندما تقولون لي مع السلامة وأعيدها إلى مصر .
- تفضل .

وحملها من سيارة الأجرة إلى داره في العمارة وحملها مرة أخرى إلى داخل الشقة . وشعر بألم عنيف في كتفه اليمن ، وكأن عظام القفص الصدري تفصصت أو تمزقت . وبحث عن مرهم يعالج الكدمات فلم يجد . واستخرج كتالوج الغسالة ليقرأه ، فوجئ بأن الذبذبة الكهربائية في الغسالة خمسون ، بينما في البلد تجري الذبذبة على ستين . طلب مهندساً يعرفه وشرح له الوضع ، أجاب المهندس :
- لا تشغلها وإلا احترقت .
- إذاً علي أن أعيدها من جديد إلى مصر .

فندق الحصان الأحمر

في مطار سنغافورة ، توجه للجلوس في استراحة المغادرين . وتأمل المكان . نظيف منظم ، المسافرون لم يفدوا بعد ، المقاعد في صفوف فارغة . . وفجأة برز شخص من أصحاب العيون المشروطة ، يحمل حقيبة يد صغيرة ، يأتي ليجلس بجانبه ، أيترك كل هذه المقاعد الخاوية ولا يجد مكاناً إلا بجانبي .. يتذكر الأفلام البوليسية التي تدور في جنوب شرق آسيا . وما فيها من حوادث قتل ونهب وسرقة يحاول أن ينهض غير أن شيئاً يمنعه فيستقر في المقعد . ربما ألجمه الحياء عن النهوض . وتظهر لمحة من الامتعاض واضحة على وجهه ، يطل الشخص عليه ، ويسأل باللغة الإنجليزية :

– أمسافر أنت إلى بانكوك ؟

يقول بسرعة كأنما يريد أن ينهي المحادثة :

– نعم .

ويعاود الرجل سؤاله :

– كم يوما ستقضي هناك ؟

– عشرة أيام .

يوصيه قائلاً :

– إذا سألوك في المطار أين ستقيم ، قل لهم إنك ستنزل في فندق الحصان الأحمر .

استغرب وهو يتساءل :
– وهل يجب أن أعرف مقدماً أين سأقيم قبل أن أدخل البلد ؟
– هذه هي الإجراءات .
يسكت المتحدث ، ويعاود الكلام قائلاً :
– لا تخرج من باب المطار ، انتظرني ، لنركب سيارة أجرة واحدة سوف يوفر عليك ذلك أربعة دولارات كما سيوفر عليّ . إن سيارة الأجرة بثمانية دولارات حتى وسط المدينة ، وهو مبلغ كبير .

نعم .. مبلغ كبير .. ماذا لو عرف أن الأمم المتحدة قررت راتباً يومياً قدره أثنا عشر دولاراً في بانكوك لهذه البعثة القصيرة .

تتنابه الهواجس . وتبدأ الأفلام التي تدور في منطقة هونج كونج وجنوب شرق آسيا وما فيها من جرائم وعصابات .. ترتفع إلى سطح الوعي .. تدور الأشرطة في ذهنه دون توقف . يغوص في سجن الخوف ، ويصمم أن يفلت من هذا الرجل . قد يكون مجرماً عتيداً ، يأخذني في سيارة الأجرة إلى مكان مجهول ويجردني مما أملك ، ليس معي إلا شيكات سياحية . لكن هناك نقود ورقية عادية في جيبي ، فضلاً عما أحمله من أمتعة وهدايا ثمينة لأهلي .. هذه مخاطر السفر ويجب أن أتفاداها بقدر الإمكان .

ينهض من جانب الرجل المجهول ليتمشى ولا يعود إليه . يطمئن لأنه أفلت منه .. ذلك الرجل ذو العينين المشروطتين . وفي الطائرة يحاول أن يتلافاه ، يحيه وهو ذاهب إلى دورة المياه ، فيومئ إليه بفتور . " دعني وأمش في طريقك لست صيداً سهلاً كما تتصور ،

لابد أن أغادر مطار بانكوك دون أن يلاحظني ذلك الرجل . واختفى في أحد الفنادق - لا يدرك مكانه ذلك الرجل - حتى تنتهي الأيام العشرة في المدينة وأغادرها بسلام " .

وفي المطار يتقدم الصفوف ليفلت من الرجل المجهول ويسلم أوراقه لضابط الجمرك ، ويسأله :

- أين ستقيم في بانكوك ؟

يرد بصراحة : لا أعرف .

يصر الضابط قائلاً :

- لا بد أن تعرف .

تلوح له الإجابة جاهزة فيطلقها : فندق الحصان الأحمر . ها أنت تخضع لتعليمات الرجل المجهول ، لكنها تعليمات مفيدة . أليس كذلك ؟ .. كأنها جواز المرور .. ها هو الضابط يؤشر على جواز السفر وينهي الأمر . ويمر يبحث عن حقائبه . ليس بالضرورة أيها الضابط الهمام أن أبيت في ذلك الفندق . لن تستطيع أن تتعقبني . سؤالك ساذج . وأجبتك فقط لأرضيك .

أمام باب المطار يشاهد الرجل المجهول ينتظر ، لم يستطع أن يفلت منه . يقول له كأنما يأمره . هيا نستقل السيارة . يتخذ إجراءات استقدام سيارة الأجرة بسرعة ، يعرف المكان جيداً . لابد أنه من أبناء تايلاند . أو مقيم فيها لمدد طويلة .

تقف السيارة بعد نصف ساعة أمام فندق الحصان الأحمر ، ويدخل معه . يتبعه كظله . أبسبب أنه وفر أربعة دولارات . لم تنقاد

إليه .. أبسبب أن اجر الفندق زهيد للغاية بشكل لم تكن تتوقعه رحت تمشي وراء ه . إن ارتيابي فيه لا يزال يسكن قلبي . . الشك لا يزال يقودني . لم أختار حجرتين متجاورتين ، لا بد أن هذا الرجل سوف يستولي على ما أملكه ليلاً . والناس نيام . يجب أن أكون حذراً . وأن تقفل بابك بإحكام .

الجو حار خانق في الخارج ، لكنه في داخل الفندق لطيف ، يملأ جهاز التكييف الهواء بهجة وانتعاشاً .

في حجرته يسمع جهاز التكييف يدور في الحجرة المجاورة يقلق راحته . جاء من بلاد لا تدير هذه الأجهزة في بيوتها . غير أنه لا يطيق الحرارة الكثيفة التي تغزو الحجرة سيبدو الحر جاثماً فيها كأنما يستعد ليطبق على الأنفاس . .. يريد أن يمنع حركتها . ينهض ليدير جهاز التكييف . ويعود إلى فراشه فيشعر بالبرودة تسري في أوصاله . يفكر أن يغلق الجهاز لكن النوم يكاد يكتسح عينيه .

يفوق على أصوات طرقات على بابه . حينما يفتح الباب بحذر . يجد الرجل المجهول واقفاً أمامه وقد بدا عاريا إلا من مفرش كبير يستر به عورته والنصف السفلي من جسده ، يسأل في حرارة :

– هل من خدمة أؤديها لك قبل النوم ؟

يغرق في بحار الخوف مرة أخرى ، وينتشل نفسه من البحار المالحة ويتشجع ويقول : شكراً .

– إذاً ، فلتصبح على خير .

يستغرب سلوك الرجل . أيكون هذا الرجل مجرماً حقاً أم أنه يتفانى في خدمة الآخرين . متحير ، لكن تعب اليوم كله يسقطه في بئر عميقة من آبار النوم . لا يتمكن من الفرار منها إلا باقتراب الصبح ، يتسلق البئر بصعوبة ليطفئ التكييف ، ويستسلم لهجمة الحر شبه الخانق على الحجرة .

وعند مائدة الإفطار يجد جاره ينتظره وهو يسأله :

– لعلك تمتعت بنومٍ عميق .

– الحقيقة كنت قلقاً لأنني لم أتعود على التكييف في بلادي .

– سوف تتعود بعد يوم أو يومين .

يصمت ثم يقول :

– أشكرك إذ ركبت معي سيارة الأجرة فوفرت لي مبلغاً كبيراً حوالي أثنين وتسعين بات . وجئت معي إلى الفندق . ولكن لن أبقى معك كثيراً ، فسوف أغادر بعد قليل متجها إلى مدينتي في الجنوب .

– هل أنت تايلندي ؟ ..

– أنا تايلندي حقاً نسيت أن أقول لك .

– وأين كنت إذاً ؟ ..

– أنا مهندس بترول كنت أعمل في جاوه ، في إندونيسيا وقد تسلمت عقد عمل جديد في الظهران .

يجري الحوار بينهما هادئاً ، لا تعكره شوائب الشك ولا تلدغه عقارب الخوف .

أمعقول هذا ؟ .. كنت أشك طوال الوقت في هذا الرجل وهو نبيل حقاً . كادت الأفلام الأمريكية تقضي على ثقتنا في الناس وتفسد علينا حياتنا .

ناد بلا رواد

كانت الشمس لم تبدأ حريقها بعد ، لا تزال تحنو بيديها على الأرض . وتبث شعاعاً بعد آخر ، يسقط على الوجوه يدغدغها .. ويجعلها تشعر بأن الجو لا يزال ربيعاً .. وأن معركة الصيف والربيع لم تحن بعد .

جلس الأصدقاء يتكلمون في أمور مختلفة . أسسوا نادياً بلا قاعة في الهواء الطلق . جعلوا مقره هذا الكازينو الهادئ . يجتمعون فيه كل يوم جمعة . قبل أن يزحف الناس إليه ويحاولون اقتناص الكراسي فيه من الذين لا صلة لهم بالأدب . عادة ما يتناولون عملاً أدبياً بالبحث . ويبدأ نقاشهم حوله فحماً يتوهج ، ثم تتطاير الشرارات منه ، ويتحول إلى فرن ، يسقط فيه صاحب العمل الأدبي وكأنه سقط في آتون . ويحترق ويتلوى، وتتغير أساريره . ويرفع يده مستسلماً . يحاول أن يقبل التراب . غير أن زعيم النادي وأفراده لا يعفون عنه ، يلقون الأخشاب في النار فتزداد توهجاً . وحينما تنفذ الأخشاب يتناولون سيقان الأشجار يغذون بها النيران . وحينما تبدأ في الخبو من أثر سوء التغذية تكون النشوة قد بلغت منتهاها ويزداد الأديب الفحل حولاً . والناقد الأصلع يهرش رأسه كأنما يتأكد أنها خالية من قطرات العرق . والشاعر تكاد شفتاه تنطق بقصيدة جديدة . جمر الموقف يجعله ينطق تبرأ . وزعيم هذه الرؤوس الباردة الشاعر

الناقد الأديب يرتفع حجباه الكثيفين تؤكدان أن السجال بلـغ المنتهـى . ويكون قد دون في مفكرته كل المساجلات والملاحظات علـى العمل الأدبـي . يـأمر حينئذ بشـرب الميـاه الغازيــة والتخفـف مـن حـدة الموقف .

ورغـم أن النقـاش الجـاد الحـاد يعـود رواد النـادي إليـه كـل يــوم جمعة . ويكون الزعيم مستعداً دائمـاً بضيـف جديـد . مـن أصحـاب الأعمال الجديدة . ويضعـه فـي الإنـاء البـارد . ويشـعر بالانتعـاش . ويفاجأ باشتعال النار تحته ويبدأ المـاء القـراح يغلـي والضيـف يقفـز ويعترض . ولا سبيل أمامه إلا أن يدور دوران الغليان ، يصعد إلـى أعلى حتى يبرد ويسقط في القاع ثانية حتى يسـخن . وهـم جميعـاً – النقاد – يخفون ابتسامة متشفية ، وألسنتهم تلهج بالنقد .

تلك كانت حال النادي حتى وقعت الواقعة .

كان الأديب الفحل صاحب الرأس ذات الشبه بـالقرع العسـلي فـي أوج شموخه في ذلك اليوم ، غير أن عينيه غـير المتصـالحتين كانتـا تبرقان بريقاً شريراً ، وقامته الطويلـة كقـادم مـن صعيـد مصـر تـدل علـى أنـه يبغـي الأخذ بالثـأر . جلـس وقدمـاه امتدتـا علـى الأرض تفرشانها ويداه انعقدتا على صدره كأنما يحمـلان جبـالاً مـن الغيـظ . كان يجلس كمن يترصد فريسة .

وهل هلال الناقد الأصلع فجأة عضو النادي البارز . ذي السوالف الزاحفـة علـى أذنيـه .. بيضـاء ولـو أن الجــزء البــاقي مـن شــعره

المنقرض داكن السواد . فبدت السوالف كأنها لسان فجر بازغ لليل قصير غرقت فيه الرأس .

جاء الناقد متأخراً على غير عادته .. يحمل مجلة في يده . حينما رآها الأديب عرف أنه يحملها يتباهى بها . وبدأ الأديب يتربص به يكمن وراء حقول الألفاظ حتى يقذفه برصاصة غير طائشة ، ويرد عليه بضاعته ، وينتقل النقد من اللوم على التأخير إلى رد الهجوم على عمل للأديب في مجلة أسبوعية . يكشف أخيراً عن خبايا تلمظه وامتعاضه الدفين . ويتهم الناقد الأديب بالجهل والسفسطة . وعدم الدراية . والجميع مشدوهون من تحول الجلسة . والضيف الجديد – الفريسة الجديدة – ينتظر أن يقتنصها الصيادون . غير أن الضيف لم يدرك أن الأديب الفحل أخذ دور الصياد ليلعبه . وأن الناقد يمثل الآن دور الفريسة ، ولكن الدور واقعي للغاية .

ويروح ينهال عليه بألفاظ ليست أعجمية ولا سافرة ، ولا يتقطر منها ماء الحياء . والناقد جالس يدعك في أسنانه بعضها في بعض ، يطحن لحما مزيفاً . ويزدرد رضابه في صعوبة عطشان إلى قطرة شجاعة وجرأة . ويمسك بيده المجلة العريضة السميكة تتضح بما كتبه من نقد ضد الأديب . والأديب يواصل إذاعة ألفاظه الجديدة على النادي . تنطلق مدافعه تقذف بقذائف غير أدبية والناقد يصدها بدرع من الصمت ثقيلة .

بغتة ، ينتفض الناقد ويتجه نحو الأديب وينهال على رأسه يضربه بالمجلة ، وصوت ارتطمات المجلة بالرأس يصل إلى أسماع

الجالسين في دائرة .. وقد أصابهم الاندهاش والبهوت . جاءوا لسماع نقد لاذع هادئ فإذا بهم في حلبة مصارعة . وركب على أيديهم وأرجلهم الشلل لم يعرفوا مصدره . وغاض الدم من وجهه ، وتدخل أخيراً الجالسون ومنعوا الناقد من الاستمرار في غيه . وكف الناقد عن الحركة . وجلس في مقعده . وقد اختفى اللون الأحمر من صلعته . وأصبحت صفراء في لون الكركم .

بعد قليل من الصمت الثقيل ، اختفت دائرة الكراسي وأصبح نادي الهواء .. في الهواء .

الأوقات العصيبة

رقدت في الفراش على أمل الشفاء . والشفاء شبه مستحيل فلا دواء لحالتها ، لذلك تسرب اليأس إلى قلبها وعشش فيه . وبادلها الأطباء نفس الشعور فأصبحوا يكتفون بالألفاظ الحانية دون أعمال ناجعة .

ولكنها لا تتوقف عن اجترار آلامها من حين لآخر .. فقد سقط الجنين . وهي تدري أنها دخلت في دوامة الأوقات العصيبة .. هل ستنجب من جديد ؟ .. وهل سيبقى الجنين قوياً يتخذ من رحمها حصناً يلوذ به أم أنه سوف ينفلت بعد قليل أو كثير من الشهور .. ضعيفاً .. هزيلا .. غير صامد . وهل سيفكر زوجها في الاقتران بأخرى تنجب له وريثاً يحمل متاعه في الدنيا من بعده ؟

تعلم جيداً أن هذه الأسئلة ستتداولها وسوف تعصف برأسها الصغير . وتدرك تماماً أن مزيداً من الصور القاسية سوف تتمثل أمام ناظريها . دوامة لن تستطيع أن تفلت منها . ولن يكون هناك غير طعنات في فؤادها تصنعها بخيالها في كل مرة . ولن ينقذها من ذلك إلا بشير .. طفل صغير ينطلق من رحمها ، يخرج حياً حتى يتنفس ويضع إصبعه في فمه يمتصه .. حتى تلقمه الإصبع الحقيقي .

دون أن تدري عاشت الدور التي تنبأت به . ولم تستطع الهروب منه .. تراقب مشاعر زوجها عن كثب منها ، تتأمله بإمعان كأنما تدرس شخصيته . تحاول أن تلفظ الأسئلة منمقة ، حتى تتلقى إجابات تفسرها على هواها . تحول فكرها السوي إلى فكر مريض . يعيش في دماغ يجتاحه القلق والأرق . لا إنجاب وبالتالي سيف الطلاق مشهر أمامها في كل وقت .

ولحق الجنين الجديد بالجنين السابق . وحمله أبوه والدموع تترقرق في عينيه .. يبدو متماسكاً . لكن جمود ملامحه ينبئ عن أسفه . وذهب إلى المقابر ليودع جثمانه مع رفات أخيه . وانزوت في حجرتها . تسكب الدمع الغزير على حظها العاثر . يكفي فقط أن ترزق بطفل واحد حتى تكتمل سعادتها . لا تريد غيره حتى لا تنظر إليها زميلاتها في العمل ويعاملنها على اعتبار أنها عاقر .. ولا يتحدثن أمامها بما يحدث لأطفالهن ولا يذكرن اسم طفل عرضاً . ويخفين عنها أعياد ميلاد أولادهن كأنما يخشين أن تحسدهم . ويتزاورن ولكنهن لا يفكرن في زيارتها . وإذا مرضت فهن يسألن عنها دون أن يصطحبن الشموع الصغيرة معهن .

ويعود الزوج بعد أن يواري جثة الجنين ، ابن الشهور الست ، ذكر ، أقتبس ملامح أبيه الجميلة وأهابها الأبيض وشعرها الغزير ، ويجدها متقوقعة في حجرتها ينهمر الدمع على خدها . والحزن بنى حائطاً سميكاً على محياها حتى لا تهرب منه .

- وحدي الله .. ولا تبكي .

تقول بخشوع :
- لا إله إلا الله .
يقول بهدوء كأنما يريد أن يلقنها درساً :
- هذا امتحان لإيماننا .. ولا يجوز أن تجزعي . ويجب أن نعبر الامتحان ويتوج أداؤنا بالنجاح .
تكاد تصرخ بالكلمات ، غير أنها تقول بضعف :
- وما ذنبك معي ؟
- لا تقولي ذلك .. هذا قدرنا .. وسوف نتحمله معاً .
تتذكر وجه أمه ، وهي تمصمص شفتيها شفقة على حظه .. حاملة أطفال أخيه في حجرها وتهدهدهم أمامه ، كأنما تدعوه أن يترك تلك العقيم ويبحث عن أخرى .. وينظر باستغراب إليها . عيناه تقولان وماذا يحدث لو كانت الأخرى عاقراً .. أرض جدباء لا ينبت فيها ثمر . أليست مشكلة جديدة سوف تضاف إلى مشاكلي ؟ .. وهل نحن في وقت يستطيع الإنسان فيه أن يستبدل واحدة بأخرى ؟ ..
تفيق من تصوراتها وهو يقول :
- ثقي أنك زوجي إلى أن يحين الأجل .. ولن أفكر يوماً أن أستبدل أخرى بك .
تشعر بكلماته كماء بارد صُب على ماء ساخن فأفقده فورانه . اطمأنت قليلاً .. غير أن الصور المخيفة لم تبرح مخيلتها . وعاودت الأوقات الرهيبة والأفكار السقيمة ظهورها من جديد . وعادت عنيفة حينما بدأ مصدر جديد غزير من المال يأخذ طريقه إلى جيبه .. حقاً

كان مصدراً مؤقتاً ولكنه يكفي لإقامة بيت جديد تدخل فيه عروس جديدة وحياة سعيدة ثانية . وطلاقها أسهل الأشياء هو حفنة من النقود تدفع لها . وكل شئ ينتهي . وأخذت الهواجس تطاردها حتى حينما حملت من جديد . ولم تهدأ الخواطر المريرة لأنها تعرف جيداً أن مصير هذا الجنين لن يختلف عما آل إليه أخوته . وحتى بعد أن بشرها الطبيب أن من الممكن التحكم في الرحم بإجراء عملية بسيطة تمكنه من الاحتفاظ بالجنين . وطلب منها أن تلازم الفراش زهاء ست شهور حتى يكتمل النمو . وتجد ولي العهد بين يديها .

ولم يطق الرحم الضعيف صبراً فثار . ، وأنفجر قلبها كمداً ، وفشلت محاولة الطبيب ، وأدركت حينئذ أن من المستحيل أن يبقى لها جنين أو يكتمل . هكذا أراد الله ولا رد لقضائه .

وعادت من جديد الهواجس للظهور .

وقالت له :

– تزوج .. أنت الآن معك المال . وأنا غير صالحة لأن أكون أماً .

أبتدرها بعنف :

– أجننت ؟ .. من قال لك إنني أريد أن أتزوج ؟ ..

– إذا لم يكن ذلك من أجلك ، فمن أجل أمك أو من اجل هذا المال الذي رزقت به .

– أرجوك . أسكتي . لا أريد أن نتحدث في هذا الموضوع .

ودخل عليها في اليوم التالي . وقال لها ، وهي راقدة في الفراش تتجرع خواطرها السخيفة :

– جهزي نفسك سوف نغادر هذه الشقة الصغيرة إلى شقة كبيرة .

– ومن أين لك هذه الشقة ؟

– اشتريتها بخمسين ألف جنيه .

– ولكن هذا كل ما تملك .

قال على الفور :

– حتى لا تفكري يوماً أنني أملك ما أستطيع أن أتزوج به .

فهرس القصص